

أديان مجلة نصف سنوية حول الدراسات الدينية تصدر باللغتين العربية والإنجليزية عن مركز الدوحة لحوار الأديان. والمجلة تركز على الحوار بين الأديان، والعلاقات بين الإسلام والديانات الأخرى.

في عالم يتخلله سوء التفاهم الديني، وممارسات العنف، واختطاف التعاليم الدينية من قبل الأيديولوجيات السياسية، تأمل مجلة أديان أن توفر فضاء للتلاقي والتفاكر حول المشتركات العامة والمقاصد المشتركة للأديان الكبرى في العالم. وعنوان المجلة يوحي بحقيقة الوحدة الروحية في التنوع الديني التي يمكن أن توفر مفتاحاً لتعمق الفرد في معتقده الديني، وكذلك مجالاً للانفتاح على المعتقدات الأخرى. فالقرآن يوحي بوحدة الإيمان، وسعى للحقيقة في إطار التنوع الديني:

"... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلبؤكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى لله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون."
(المائدة ٤٨)

بما أن مجلة أديان مجلة دولية متخصصة ومرتبطة بمركز الدوحة الدولي لحوار الأديان فإنها تجد إلهامها في الرسالة العالمية للإيمان بإله واحد، في معناها الواسع، كما أنها تسعى لمشاركة مختلف الديانات التي لها مبادئ وقيم مشتركة في داخل هذا الإطار المفهومي الواسع.

وتشجع المجلة الدراسات المقارنة والتبادلات بين الأديان بروح الحوار والاعتناء المشترك. وهدفها هو الترويج للتفاهم بين المؤمنين بمختلف الأديان، وبدراسة واكتشاف الأسس اللاهوتية والروحية المشتركة بينهم، وعلاقاتهم البناءة المتبادلة في الماضي، والحاضر وفي المستقبل، ودراسة وتفهم أفضل لأسباب الصراعات بينهم، والتحديات التي يواجهونها عند الالتقاء بالمجتمعات العلمانية والغنوصية الملحدة.

وبالإضافة إلى ذلك، تود المجلة أن تحيي الأفق العالمي للإسلام وتؤكد عليه، وذلك برعاية دراسات في العلاقات بين الإسلام والديانات والحضارات الأخرى في مجالات التاريخ، والفنون، والدراسات الدينية. وفي هذا أيضاً مسعى لتفعيل الخطاب الفكري في الإسلام، وذلك في إطار ارتباط تفاعلي ومثمر بين الإسلام والديانات الأخرى.

والمقالات المنشورة في مجلة أديان هي على مسئولية كتابها بصورة كاملة، ولا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان. وهي تُنشر في إطار حوار مستمر حول الأديان، ولا تُؤخذ بأنها تعبر عن مواقف أي منظمة راعية للمجلة.



محتويات

- ٤ افتتاحية العدد: باتريك لود
- ٦ لقاء مع الكاردينال أوناييكن
- ٨ أخلاقيات العمل في الإسلام: لقاء مع الأستاذ على محي الدين على القرداغي
- ١٠ نداء أشاريا: سري سوامنتان
- ١٤ العمل بين الخلق الدينيّة وقيم الحداثة: عليّ بن مبارك
- ٢٣ أخلاقيات العمل في رؤيتي العقل والنقل: محمود الذوادي
- ٢٩ الأخلاق في العمل الصحافي: فوزي غبارة
- ٣٤ سير الكتاب المساهمين

المعلوماتية. وبالتالي في كثير من الأحيان أصبح دور العمل منحصراً في تلبية ضروريات الحياة ووسيلة لمجرد البقاء على قيد الحياة، منقطعة بذلك عن الاهتمامات الأساسية والأخلاقية، وعلى خلاف مع القيم الأخلاقية والسعادة الروحية. وإذا تأملنا تاريخنا الإنسان، نرى أن الاستثمار في العمل من منطلق ديني كان هو القاعدة. في الحضارات ما قبل عصر الحداثة، كان تقديس العمل هو السمة المشتركة، وهذا ما يظهر جلياً، كذلك لدى الرجل المتدين، فالعمل هو الفعل أو الإنتاج، وفي كلا الحالتين ينطوي العمل بصيغة من التقديس. ولذا كان لا بد أن ينفذ العمل "باسم الله"، بحيث لا يتم التغيير فقط على المستوى الشكلي والرسمي، ولكن على المستوى النوعي والروحي أيضاً. أضف إلى ذلك أنه عندما يكتمل العمل روحياً، يمكن أن يتم التحول جوهرياً، كما يتجلى ذلك بوضوح في حالة الترابط الوثيق، واسع النطاق، بين الفنون والروحانيات. وينطبق هذا على الأفراد والجماعات على حد سواء، مثل النقابات، والقبائل أو الطبقات الاجتماعية. كما يرتبط العمل بمفهوم الهوية، والناس الذين لا يعملون، أو نسوا كيف يعملون أو لا يهتموا بالعمل، سيفقدون كرامتهم ومعها هويتهم الحقيقية. ولا يعتبر العمل هنا مسألة مفخرة وطنية أو مجرد تراث رسمي، بل هي أحد القضايا المصرية. وهي من القضايا الهامة للحفاظ على الموروث الثقافي والديني. وهذا ما يدل على أن "غاندي" قد أدرك جيداً العلاقة الوثيقة بين الهوية الروحية للأمة ونوع عملها عندما اختار عجلة الغزل شعاراً للحملة التي أطلقها لإحياء التراث والحضارة الهندية. وحتى حين ما يندرج العمل ضمن القيم الدينية، نادراً ما يعتبر في حد ذاته فعلاً دينياً

نلاحظ اليوم أن الثقافة الدينية باتت تنظر إلى العمل من زاويتين: الأولى باعتباره نعمة، والثانية باعتباره نقمة؛ أو باعتباره أما هبة إلهية، في بعض الأحيان، أو وسيلة تهذيب في أحيان أخرى. وهذه النظرة الدينية المزدوجة لظاهرة العمل، تبدو جلية في واقعنا المعاصر، وعلى وجه الخصوص من خلال وجود ظاهرتين داخل النظام الاقتصادي العالمي: ظاهرة الاستغلال من ناحية، وظاهرة الإبداع والنشاط المتنامي بوتيرة مطردة من ناحية أخرى.

من المؤكد أن اهتمامات العمل طغت على جوانب أخرى في حياة الناس اليوم، لدرجة أن البعض يذهب إلى القول بأن العمل تحول في عصرنا إلى دين جديد، على أقل تقدير في مناطق واسعة من العالم لا تسير حسب النظام الديني. ورغم الفراغ الذي تركه انعدام الاهتمام بالجانب الروحي والتوافق على القيم الدينية، يلاحظ أن النشاط المهني، يكاد يملأ هذا الفراغ، ليعطي معنى للحياة من ناحية، وليربط الأشخاص بعضهم ببعض من خلال شبكة من المهام تقوم على التعاون المتبادل.

وخير مثال لذلك هو ما نراه عبر العالم من العمل الإنساني الهائل المتسق والمعقد، الناتج عن الالتزام والإبداع والعمل الدؤوب، من خلال حركة دائمة وسريعة التطور.

وبالرغم من أن التعلق بالعمل أصبح مرتبطاً بنوع من الحماس يكاد يرقى إلى درجة العبادة، مما يفقد العمل دوره التقليدي، في بعض الأحيان، ليتحول إلى مصدر ظلم واستغلال وتسلط.

والحقيقة أن سبب هذا السلوك يعود إلى الثورة في وسائل الإنتاج مثل استخدام التكنولوجيا والتشغيل الآلي، مع إدخال المعلوماتية في كثير من مجالات المهنة، مما يسلب الطابع الإنسان من الكثير من المجالات المهنية بسبب الثورة



وما يتكون منها من الشعور الديني، يتناقض صراحة مع الغش المهني والسلوكيات اللا أخلاقية. وفي هذا المعنى، يشكل الدين مدرسة التربية الأخلاقية، سواء في الجانب المهني أو في النواحي الأخرى للحياة.

وفي المقابل غياب ارتباط وثيق أو إدماج بين الممارسات الدينية والأخلاقيات المهنية، ما هي إلا دلالة عن وجود فهم خاطئ عميق للممارسات الدينية أو في التعامل معها.

وبالإضافة إلى هذه الاعتبارات الأساسية، يمكن القول أن الأخلاقيات المهنية الشاملة، لا محالة تعترف بضرورة منح العمل نوع من التقديس النسبي غير المطلق. كما يعتبر العمل، من هذا المنظور، واحداً من أهم أبعاد حياتنا، ولكنه لا يزال مقيداً بالقيم الروحية، والمبادئ الأخلاقية العليا، التي تحدد نفوذ وحقوق ومتطلبات العمل.

وتبقى هذه المبادئ هي الضامنة على أن يبقى العمل هو وسيلة للحياة وليس غاية لها.

باتريك لود

التعريب : د. محمادي علي محمادي

أو نتاجاً دينياً. ذلك أن الأعمال الدينية تتمثل في الأساس في الطقوس والصلوات والسلوكيات الأخلاقية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن الربط بين العمل المهني والأعمال الدينية؟ والجواب يستدعي عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى هي أن عمليتنا الصلاة والتأمل يمكن اعتبارهما نوعاً من العمل، وهما في كل الأديان، واجب جماعي، وكذلك دعوة للخصوص. ونجد هذا حتى في الأديان التي لا تقبل بالرهبانية، مثال ذلك "أهل الصفة" في صدر الإسلام، والذين كانوا انقطعوا للعبادة. لأن الإنسانية المتنوعة المشارب، تكون كذلك متنوعة في ميولها المهنية.

والملاحظة الثانية هي أن ثمة فكرة خاطئة وغامضة تدعي وجود تعارض بين عملية التأمل والعمل.

القرآن يقرر في هذا المجال في الآية التالية: "لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله"، عدم وجود ذلك التعارض. وبالتالي يدحض وجهة النظر السطحية المعاصرة، والتي تزعم انعدام التوافق بين العبادة والعمل المهني، وكما تزعم عدم امكانية أن يحل كل منهما محل الآخر، أو يتساوى الطرفان.

أما الملاحظة الثالثة هي أن الممارسات الدينية



لقاء مع الكاردينال أوناييكن

يشغل الكاردينال أوناييكن حاليا منصب رئيس الأساقفة الكاثوليك في أبوجه بنيجيريا، وهو شخصية ساهمت وما زالت في الحوار المسيحي الإسلامي، وهو من الأصوات القليلة المدافعة عن جدوى الحوار وأهميته في دعم إرساء السلام وحل النزاعات. وفي هذا اللقاء الذي قام به فريق من المركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، يقدم فيه رئيس الأساقفة بعضا من تأملاته حول

"أخلاقيات العمل".

الأديان التقليدية الإفريقية لا تختلف كثيرا عن المسيحية و الإسلام، ولذا يمكننا القول بأن الأديان التقليدية التي كنا ندين بها لم تكن وثنية ، كنا نعبد الله من خلالها، ومن هنا استطعنا أن نقرأ الكتاب المقدس بدون عناء. والذي كان مفتونا بسيرة السيد المسيح ومن هنا صدقه وآمن به، لأن المسيح لم يأتي بإله جديد. الكتاب المقدس رغم أنه لم يتحدث كثيرا عن المسيح إلا إنه حكنا عن المعجزات التي ظهرت

على يديه، وهي الدالة على أفعال الله من حولنا، علما بأن المعجزات هي في الأصل خاصة لله. كما أنه نؤكد بوجود إتباع المسيح في أقواله و أفعاله لأن أفعاله تجسيد لأقواله.

يوجد في أفريقيا قساوسة وراهبات نذروا حياتهم للعمل من أجل لله باعتبارهم مسيحيين، في نظري يمكن اعتبار العمل الدنيوي أيضا عملا من أجل لله.

ومما لاشك فيه هو أن الكسل صفة سلبية، وإذا لم يقم الجميع بالقيام بأعمالهم اليومية على أحسن وجه، اعتبر ذلك معصية لأوامر الله.

يحتفل الناس في أفريقيا كثيرا بالأيام المقدسة، وفي نظري إذا انتهت العبادة، ينبغي للناس أن ينتشروا لأعمالهم الدنيوية و تجارتهم و معاشهم.

في القرون الوسطى كان جميع الناس يشتغلون، ولكن وجدت في عصرنا ظاهرة جديدة وهي

البطالة ومن الصعب السيطرة عليها. ومن منظور المسيحية العمل يهدف إلى عمارة الأرض باعتبار

الإنسان خليفة لله، وهذا يعني أنه رسن هدف واضح لحياة الإنسان. نريد أن نحقق عملا يرضي ذواتنا. عند ما نفقد العمل، ينظر إلى الحياة بأنها

غير عادلة. ويلقى ذلك الظرف مسؤولية كبرى على عاتق الدولة لتوجيه الناس ومساعدة ، من

يرغب ويقدر على إيجاد العمل. وفي هذا الصدد يقول بولس بأن من لا يريد العمل ينبغي أن لا يأكل، وهذا المثل ينطبق على الكسول.

ومرة سألني بعض الشباب عن حالة الشخص

الذي له رغبة في العمل ولكن لا يستطيع الحصول عليه، ولا يجد ما يأكل، فهذا مأساوي جدا. تغيرت

النظرة إلى العمل في عالمنا المعاصر، حيث لم يعد العمل يحمل تلك القيمة النبيلة التي ترفع من

قدر صاحبها. فإذا أخذنا مثال الحرفيين الذين كانوا يجمعون بين الوظيفة والفن ليس له مكان أو فرصة في ساحة العمل اليوم كما أنه لم يعد لتخصصات الماضي وجود اليوم. لقد طرأ تغيرا جذري في مفهوم العمل اليوم، وأكثر من يعاني من هذه الحالة هم فئة الشباب.

وإذا رجعنا إلى دور الدين فإنه لا يمكنه أن يوقف هذه العملية، أقصى ما يمكن للدين أن يقوم به هو أن ينصح ويوجه صناع القرار إلى إيجاد بيئة مشجعة للعمل. الناس ليسوا عبارة عن آلات إنتاج ويحتاجون إلى تعامل تحفظ لهم كرامتهم، ومن المثير للاستغراب أن بعض الأعمال تعتبر أكرم، أرفع قدرا، من غيرها في هذه الأيام.

أما دور الدين فهو تنبيه أرباب العمل إلى أن إرادة الله تكمن في إعطاء العمال حقوقهم كاملة.

مهما بلغ مستوى الرقي في المجتمع، فإنه ما لم يستوفي الشباب حقهم في مجال العمل حتى الشعور بالرضي من ظروفهم ستصيبهم حالة من الإحباط ستدفعهم في كثير من الأحيان إلى طريق العنف.

ينبغي أن يدرك الناس بأن السعادة تعتمد على قدرة معرفة المرء بنفسه، ويمكن أن تكون سعيدا مع امتلاك الحد الأدنى، مع المعرفة العميق لنفسك، وبالتالي لا يحتاج الناس إلى الكثير ليكونوا سعداء.

التعريب : د.محمادي علي محمادي



العمل ركيزة أساسية من المنظور الإسلامي. وعلى هذا الأساس قامت فلسفة العمل في الإسلام، فهي تسعى لتوجيه العمل لخدمة ومنفعة الإنسان ولخدمة البشرية بصفة عامة. وهذه الفلسفة ترتبط بالله و العقيدة ومرتبطة بما ينفع الخليفة.

٢- هل يمكن اعتبار العمل عبادة، وكيف نوازي بين العمل المادي والعبادة الروحية- ما هي الضوابط؟ من النظرة الإسلامية يعتبر العمل عبادة، وهو ينقسم إلى نوعين: عمل يدخل في صميم العبادة مثل الصلاة والصيام، من ناحية، والعمل الدنيوي من ناحية أخرى. هو آخر أيضا يعتبر عبادة، لأنه يحقق الرسالة والهدف الذي خلق الله من أجله الإنسان، ومن هنا سمي الرسول صلى الله عليه وسلم العمل عبادة، ووصف الشخص الذي يعمل ويتعب، بأنه في حال جهاد في سبيل الله. وليس هناك تناقض وازدواج في الإسلام بين العمل الديني والدنيوي، فكله ديني إذا أخلصت النية لله في العمل، فعلى الإنساني أن يعمل لأخوته ودينه ودينه، معا، قال تعالى: "رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [سورة البقرة، الآية ٢٠١].

٣- الحقوق والواجبات بالنسبة لأرباب العمل والعمال وما هي حدود تلك العلاقة بين الاثنين؟ الحقوق والواجبات تقوم في الإسلام على نظرية "الحقوق المتقابلة"، حتى بين الله عز وجل وعباده. فرض الله سبحانه على ذاته العلية حقوقاً وهو متفضل بها، وكذلك فرض على عباده حقوقاً عليهم أن يفعلوها. فنظرية الحقوق المتبادلة نظرية أساسية في الإسلام.

يجب على أرباب العمل أن يوفروا أسباب العيش الكريم للعمال، كما يجب أن تكون الرواتب مناسبة لمستوى ونوعية العمل، وكذلك متطلبات المعيشة، وأن يكون تعاملهم مع العمال تعاملًا إنسانياً وأخلاقياً يليق بكرامة الإنسان بدون أي تجريح أو أي تعدي ينال من كرامة الإنسان.

فكرامة الإنسان والحفاظ على حقوق العمال فريضة شرعية في نظر الإسلام، وعلى أرباب العمل أن يوفروا

أخلاقيات العمل في الإسلام لقاء مع الأستاذ علي محي الدين علي القرداغي

الحوار

أجرت مجلة أديان التابعة لمركز الدوحة الدولي لحوار الأديان مع الشيخ علي محي الدين القرداغي، الأمين العام لإتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

١- مكانة العمل وفلسفته في الإسلام. العمل هو الركن الأساسي في الإسلام، كما أن الإيمان هو تصديق المتحقق من خلال العمل الصالح، سواء كان ذلك العمل دنيوياً أو أخروياً.

من جانب آخر ينقسم الإسلام إلى جانب عقدي (أركان الإيمان الستة)، وإلى جانب عملي (أركان الإسلام الخمسة). ذكرت كلمة "عمل" في القرآن الكريم أكثر من ٢٠٠ مرة. ومفردة "عمل" تشمل جميع أنواع العمل، كما أن الحضارة لا تتحقق إلى من خلال العمل، ولا سيما العمل النافع.

فإذا كان الهدف من خلق الإنسان هو تعمیر الكون، فلا يتحقق ذلك إلا من خلال العمل الجاد، ولذا كان

وبالتالي يجب على الطرفين أن يلتزما بواجباتهما، و إذا لم يوجد هناك عقد أو كان العقد شفوياً أو وجد العقد ولو كان ناقصاً، فعلى الطرفين استكمال الشروط المتبقية من خلال الأعراف.

٥- توصيات ونصائح لأرباب العمل وللعمال. أوصي الطرفين بتقوى الله تعالى وبالإحسان الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وهذا يقتضي الإخلاص والتسامح والإتقان والإبداع، حتى لو كان رب العمل ظالماً لا يجوز على العامل أن يغش أو يفرط في واجبات العمل، كذريعة لذلك.

وعلى رب المنزل أن لا يكلف العمال بما لا يستطيعون، وأن يطعمه من نفس الأكل الذي يأكل منه، إذا كانوا يعيشون معه داخل منزله.

كما يجب معاملتهم بالعدل والإحسان: والعدالة تعني القيام بالحقوق المتقابلة، بأن يعطي ما عليه من الحقوق ليأخذ ما له من واجبات، ولا يأخذ شيء إلا بحق، ولا يطالب إلا بحق، وهذا يتطلب أن تكون بنود العقد واضحة، مفصلة في ما يتعلق بحقوق وواجبات الطرفين، كما تعني العدالة أن لا يكون أي استغلال أو غش أو تدليس أو تخرير أو تضليل.

والإحسان يعني بالنسبة لرب العمل توفير المرتب المناسب والتعامل الأجود و التسامح، أما بالنسبة للعامل، فإن الإحسان هو القيام بالعمل المطلوب منه، والحفاظ على اسرار رب العمل أو أسرار المنزل لعمالة المنزل.

وبالخلاصة الإحسان والعدالة واجب على الطرفين على السواء.

أجرى الحوار د. محمادي علي محمادي

للعمال الأجواء النفسية والإنسانية المناسبة للقيام بأعمالهم في أتم وجه.

أما واجبات العمال فهي تتلخص بالإخلاص في العمل والولاء والانتفاء، وأن يقوموا بواجبهم في ضمن ما حدد لهم من مهام في بنود العقد أو ما يقتضيه العرف، إن لم يكن عقد مكتوب. وأي تفريط في ذلك يتحمل العامل مسؤولية المترتبة على ذلك. كما لا يجوز للعامل أن يفرط في العمل حتى بسب العبادات، وإذا فرط في وقت الدوام يكون الأجر الذي يحصل عليه محرماً أو مكروهاً حسب نوعية التفريط.

٤- هل التعامل مع العمالة يختلف، ما بين عمالة المنازل وعمالة الشركات؟

هناك فروق عرفية بين هذين النوعين من العمال سواء في الشريعة الإسلامية أو القوانين الوضعية. الأعراف، إذا لم تكن متعارضة مع الشريعة الإسلامية، والعرف يعتمد حتى في الإجتهااد.

فمن هنا جرت العادة أن العمل في المنزل يختلف عن العمل في الشركة، سواء كان من الناحية الأخلاقية أو الجانب الإئتمانية والأمنية، أو من ناحية الأمانة.

في هذه الحالة يجب على رب المنزل أو ربة المنزل توفير الأجواء المساعدة لأداء العمل من مسكن أو مآكل أو الوسائل الحياتية الأخرى. وأرى أن مسؤولية العمال في المنازل أصبحت أكبر اليوم من العمال في الشركات، وذلك أن العمال في المنازل أضحووا من أهل البيت، وبالتالي يجب عليهم أن لا ييؤحوا بأي سر من أسرار البيوت، ويجب عليهم أن يعملوا المهام المطلوبة، كما لا يجوز لهم أن يعتدوا على كرامة أهل البيت أو أعراضهم أو أن يخونوا الأمانات، أو يعتدوا على الأموال.

فحتى بالنسبة للوقت الذي يقضيه العامل والعاملة في البيت قد يكون أكبر وفي هذا يتبع الأعراف المتعارف عليها في المجتمع.

وكذا على رب العمل بالنسبة للمنزل أن يوفر المكان والوقت وكل أسباب الراحة للعامل والعاملة.

أما بالنسبة للشركات عادة هناك عقود تنظم العمل.



نداء أشاريا سري سوامنتان

السانياسين والواجب المجتمعي

يوجد عدة ملايين من السانياسين من كل الطوائف في الهند. هم لا يعيشون بالكسب، أي لا يزاولون أي "عمل مُنتج" كما نفهمه في العادة، بل يعيشون على الهبات التي يتفَضَّل بها عليهم أرباب البيوت. وفي هذه البلاد، فإنَّ الفكرة الرائجة عن السانياسين هي أنَّهم، كما عامَّة المتسولين، لا يساهمون في الثروة القوميَّة، بل يتطفَّلون على المجتمع. وقد تمَّ مؤخَّرًا العزم على إنشاء منظمة تعرف بـ"ساندو سانخ" الهند كُلهَا بغية تثير خدمات أعضائها، أي السانياسين، في الحركات الخيريَّة الاجتماعيَّة. وهكذا، يُوظَّف، لهذه الغاية، بعض المنتمين إلى طبقة السانياسين كدعاةٍ رحل تُدفع لهم مكافآت ومخصَّصات جيدة. وبنظرة عامَّة وغير منحازة إلى الطرف هذا، على

المراء أن يقرَّ بوجود عدد كبير للغاية من السانياسين، وأنَّ بعضهم بالفعل عالة على المجتمع. وليس الأمر مُحَبَّب. لكن، على هذا الأساس، هل علينا أن نقرَّ بأنَّ السانياسين، باعتبارهم طبقة، متسولون متطفَّلون، وينبغي تصفيتهم؟ وهل نستطيع بموجب التشريع المحدث أن نمنع السانياسين من استجداء طعامهم والحال أنَّهم مدعوون إلى ذلك؟ إنَّ الحياة التي تدعو إليها الساسترا، توجب على كلِّ فرد أن يمرَّ بمراحل من العمر أربع، وهي كما يلي: براهماشاريا آسراما وجريهاستا آسراما وفاناابراستا آسراما وسانياسين آسراما. في هذه المراحل الأربع، وحدهم البراهماشاريون (المبتدئون) والسانياسين يحقُّ للبرهما، بل يجب عليهم، الاستجداء. فالبراهماشاري، تحت ظلِّ معلِّمه، أو جوروكولافاسا، عليه أن يستجدي الطعام المطبوخ له ولمعلِّمه، فيذهب كلَّ يوم إلى بضعة منازل ويسأل سيِّدة كلِّ منزل أن تعطيه قائلًا (بالسنسكريتيَّة):. والغاية من استجداء الطعام هنا مزدوجة. فالطالب، بدايةً، يُحفظ في وقته ويدخر

ثروته وموقعه ليعتنق السانياسا، لا ذاك الذي يصير سانياسي هرباً من هموم العائلة، أو لوداً بالتسوّل الذي يجد فيه هيّن العيش. والصدقة " بيكشو" إمّا تُعطى لأوّل هذين. ولا يصير سانياسي حقاً إلا من سلك هذا الدرب المختار والعالم لا بدّ له من السانياسي المقدم الذي يمضي وقته متأملاً الأسمى. فهو يبيّن درب الحياة الأرفع. ولن يكون السانياسين، بهذا، كثيري العدد بحيث يعجز المجتمع عن صونهم.

لم ينهض كلّ السانياسين الذين تراهم حولك بأعباء السانياسا الحقّة. في زمن البوذيّة، كان لزاماً على كلّ أحد أن يكون بيكشو (سانياسين) لمُدّة معيّنة، على سبيل التأدّب الروحيّ. والبيكشو، إذا ما أراد، يستطيع أن يؤوب إلى الحياة العلمانيّة بعد استيفاء المدّة. لكن يظلّ كثيرون على ما هم عليه بيكشوس طوال حياتهم إلا أنّ مثال الرهبان البوذيين قد أتبعه أولئك الذين لا تستهويهم حياة الروح، بل يرومون هيّن العيش، حيث لا كدّ في طلب الرزق.

إنّ هذه المقاربة التاريخيّة تعلّل كثرة الباراديسس في الجنوب، والسادهوس في الشمال وكلا الفريقين، يفتقران إلى مؤهّلات السانياسا الحقّة، ولم يندرجا في السامبرادايا، أو في رهبنة مُصادق عليها من قبل من له الأهليّة، فلا يستطيعان تركيز الذهن على الأسمى، بل يستجدون لقمة العيش كأهل الدنيا. الشخّاذون من هذا الصنف هم المتطفّلون على المجتمع والجديرون بالتصفية. حريّ بنا ألا ننزع السويقات التي تحمل الحَبّ ونحن نسعى في اقتلاع العشب الضارّ. السانياسي الحقّ رصيد إيجابيّ في كلّ مجتمع، ولا ينبغي أن يُدان من حيث هو عالة غير منتجة في المجتمع ويمكن أن نتعرّف عليه من خلال الداندا والكامندالو اللتين يظهرهما من خلال سلوكه بين الناس.

ليس المراد تأسيس رهبنة أو رابطة لجماعة السانياسين إنّ تشكيل الرابطة ليس سانياسي لاكشانا. بل على السانياسي أن يعيش في عزلة، بعيداً ما أمكن، عن الحياة الدنيا. إنّ تأسيس الرابطة سوف ينزل السانياسين إلى

حتى يفى بمطلّبات التعلّم الشاقّة، ويستبطن، من ثمّ، إحساساً بالاتّضاع، يتلقّى به العلم، فيثمر ذهنه. الاستجداء فرضٌ على كلّ التلاميذ - أولاد الملوك ضمناً. ويعطى الطعام المُستجدي إلى المعلّم الذي يوزّعه على طلبته. لم يكن ثمّة، في تلك الأيام، من أنعاب (تكاليف) دراسيّة. بل يُلزم الطلبة، عند انتهاء الدراسة، بإعطاء التعويض. وعادةً ما كان الملوك والنبلاء يساعدون الطلبة الفقراء على إيجاد التعويض هذا، فيتقدّم به التلاميذ بباكتي صادقة.

كما أنّ الساترا تفرض على السانياسين العيش على ما يُحصّله من طعام مطبوخ (طبيخ). إذ يجب عليه الانخراط المستدام في تأمل البارا-أمن، متجرّداً من كلّ نشاط ذهنيّ آخر، قد يدعوه إلى السعي وراء الدنيا. فالسانياسي الذي يمتن العمل، يريد به العيش، أو يزاول أيّ "نشاط منتج"، لن يصير "براهميتياس" (أي شخصاً تركّز ذهنه على "البارا-أمن")، وهو الأمر الوحيد اللائق به، بحسب الساترا. وقد ورد، على وجه الدقّة، أنّ عدد البيوت التي يجدر بالسانياسين ورودها في كلّ يوم هي سبعة، فيقف عند بوّابة كلّ بيت مدّة لا تزيد عن ما يُحتاج إليه في حلب بقرة، ويرضى بما يستطيع أن يحصّله من هذا الطريق. وإن لم يحصل، فيصوم. ويلاحظ، في هذا الصدد، أنّه، في حين ينبغي على السانياسين أن يرضى بقليل الطعام، فإنّ البراهماشاري يحتاج إلى ما لا بأس به من القوت كيما ينهض بما يقتضيه التعليم المتطلّب.

هذا، في حين يجب على البراهماشاري والسانياسين الاستجداء، فإنّ المجتمع يقع عليه الواجب المقابل بأن يحفظهما بهمة الطيخ لهما. "Yatischa brahmachaareecha pakvaanna" "swminaavubhau"، هو ما يُقال (في السنسكريتية).

أن هاتين الفرقتين تنفع المجتمع نفعاً كبيراً. يحرز البرهمخاي يحرز من خلال وضعه، التواضع، وكذلك السلام، اللذين يحتاجهما في انكبابه الكليّ على دراسته، فيصير بها (دراساته)، لاحقاً عضواً في مجتمعه ذا نفع. السانياسي الحقّ هو ذاك الذي يتجرّد من

مستوى أهل الدنيا، وسيحرفهم عن فروضهم المتصلة بالآراما.

أجدني موافقًا مع الاقتراح القائل بأنه لا يعيش حياته متسولًا إلا من كان طالبًا أو سانياسيا. وثمة حلان لمشكلة المتسولين ذوي القدرة: توفير فرص العمل على نطاق واسع؛ و تبيد الفروق في مستوى العيش بين الأغنياء والفقراء وفي حين يقع الأول على عاتق الدولة، فإن الثاني هو من واجب الناس أنفسهم إن رفع مستوى العيش بما هو شعار في زمننا الراهن، عادة ما ينتهي إلى حياة رفاهية تعيشها القلة الاجتماعية الحقة تكمن في نبذ الترف، والعيش باقتصاد، ومراعاة البساطة في المأكل والملبس، ومراعاة المستوى الذي يقترب مما يُتاح إلى عامة الناس. فاللازم في مجال اللباس هو ما يحفظ الحشمة، ويقي من الحرّ والبرد. ويكون المأكل بحيث يُشبع الجوع، لا بحيث يُشبع اللذة. فأن تأكل القليل الذي تحتاجه هو الأباريخراها الحقة أما الثروة القومية فينبغي تسخيرها في التطور العلمي المنتج، والدفاع عن البلد، لا في إغراء الناس بالحياة المترفة وعليه، ينبغي إنزال المستوى إلى حدّ العيش البسيط، عوض رفعه إلى المستوى المترف عندها فقط تتوافر الثروة في البلاد بحيث تكفي كل أحد.

ينبغي تحويل فائض الثروة الذي بين يدي الأفراد لمساعدة ذوي العوز بين الناس، وحرّي بفائض الثروة في الأمة أن يُستعمل لتحسين ظروف البلاد المعدّمة والمتخلفة، لا، كما يحصل في يومنا، لمساعدة أولئك الذي يلتزمون الأيديولوجيا التي ننتمي إليها، أو أولئك الذي يمكن الاستناد عليهم كحلفاء في حالة الحرب. فلو جمع كل أهل بلدٍ أمرهم على العيش على ما ينتجه بلدهم، فلن يرتفع مستوى العيش بشكل مصطنع. وتلك البلدان التي تتمتع بمستوى معيشي مرتفع، معتمدة في ذلك على أسواق البلدان الأخرى، تعيش في خوف مزمن من الكساد. بارتفاعهم إلى مثل هذا الارتفاع في مستواهم، باتوا الآن وهم يخشون السقوط. وهذا ما سيكون مصيرنا أيضًا، إذا ما قلّدنا باقي الأمم في هذا الصدد.

إن رابطة السانياسية تناقض مع القول السابق بل الواجب على المجتمع صون السانياسين الحقيقيين. يجب تزويد كل من لجأ إلى الاستجداء مهنةً. من غير اللائق أن تُدان القلة التي التزمت السانياسا آراما، بمعايير الآراما التي فرضتها، على أنها طفيليات تعيش على حساب المجتمع وليس بلائق، كذلك، مأسسة السانياسين في منظّمة لأداء ما يليق بالدولة أن تؤدّيه.

٢٩ تشرين الثاني (ديسمبر)، ١٩٥٧

رفاه المجتمع

عندما نفكر في الدارمابورم أدينام، فمن الجحود ألا نتذكّر سيّد فايديسواران كويل. فيحسب ما يؤثّر في هذا المعبد، فإن جاتايو كان قد غنى تمجيدًا لسري بارامسوارا المدفون في هذا الضريح، وتمجّد الإله نفسه بالريخ فيدا. يُعرف هذا المكان بـ"بوليروكفيتور". أما "بول" فتعني الطير (جاتايو)، وأما "إيروك" فتعني الريخ فيدا. وثمة في تاميل نادو معابد قد مجّدها فيدا أخرى أيضًا. إنها التمجيدات التي، من خلال الفيذا مانتر، تعطي الألوهية للمعبود (الوثن) أو اللينجا في المعبد. لطالما كرّس القديسون العظماء، في الماضي: كل إنجازاتهم الروحية. في بعض المعابد، فإن اللينجا من الرمال؛ بيّد الطاقة الروحية التي تدفقت فيها، عبر القديسين العظام، صانت مجد هذه اللينجات. ومن هنا التعبير، في السنسكريتية، ما معنا: "أن قلبي نقي" "Ven manale sivamaahi"، الذي يظهر في إحدى الأغاني Saivaite.

إننا نحتاج ضريح الربّ ليخلصنا من أمراضنا المادّية والذهنيّة وهذا هو مغزى العبارة (في السنسكريتية) ما معنا: "أني نصف مليء" "ara naamme" "choozhga". إنني أرى أنّ اسم هارا (شيفا) بدأ يسري في كل مكان في المدينة.

إن مادالايا ديفالايا سامايا براشارا نيليام هي هديّة دارمابورم أدينام إلى مدينة مدراس، وأثره فاعل في نشر التدبّن بين الناس. عندما في نفكر في الآدينام المزدهرة،

شيء سيتبعه. وهذا ما لم يحصل. وإننا لنحسّ اليوم أثر هذه المقاربة الخاطئة في كلّ نواحي الحياة، وبات صعبًا التحكّم حتّى بالصبيّة.

لقد شهد التاريخ صعود الإمبراطوريات وهبوطها لقد رأينا مؤخّرًا ماذا جرى لقوميّة هتلر في ألمانيا المنزلة السياسيّة أمر متأرجح لا بأس بالتالي بالتركيز على البلد إلى حدّ معيّن فحسب فالسلطة السياسيّة إذا ما خسرتها يمكن استعادتها؛ أمّا خسارة الروح فتودي إلى زوال كلّ شيء. إذا ما خسرتنا قوّة الروح، لا بلد ينجو. لقد حكى لي أنّ رئيس الوزراء نهرو، في زيارة مدرسيّة منذ عدّة سنوات، طلب من الجميع الجلوس عند أداء نشيد دينيّ، ولكنّه دعاهم إلى الوقوف، كما ينبغي لهم بطبيعة الحال، عند أداء النشيد الوطنيّ. هذا ما يشهد على التركيز المفرط على السياسة. أقلّه أيّام غانديجي [غاندي] كان الناس يغتوّن الراما نام. وحتّى هذه اختفت اليوم.

إننا نحتاج إلى نعمة الله لنردّ أمراضنا الذهنيّة. يجب أن يمتلأ قلبنا حبًّا إذا ما أردنا نبذ الشرور، مثل الشهوة، والغضب، والبغض، والجشع من قلوبنا. فالله يقيم في قلب كلّ واحد منّا؛ إلّا أنّنا ندفعه إلى الخلف بطمعنا وبأهوائنا المختلفة. بإخراج هذه الأهواء مستعنين بالحب، يصير قلبنا صافيًا ليقوم الله فيه. فقط بتطوير طاقتنا بالإخلاص إلى الله نستطيع أن نطلب الرخاء الدائم، للفرد وللمجتمع، وللأمّة، وللعالم. دعونا، إذًا، نظوّر إخلاصنا إلى الله من أجل رفاهنا ورفاه العالم.

٣٠ آذار (مارس)، ١٩٥٨

التعريب : محمود يونس

كما الدامابورم آدينام، علينا أن نتذكّر بامتنان خدمة المؤسّسين العظماء، وتضحيتهم، الاجتهاد في ذكرهم الخاص. إنّ أفضل ما قد يقوم به المسؤولون الآن عن هذه الآدينام هو السير على خطى أولئك المؤسّسين.

والنتائج الطيبة تصدر حتّى عندما يدّعي شخص ما العمل كما لو كان متديّنًا ملتزمًا. وثمّة في السنسكريتيّة آية تقول إنّ آثار عبادة شيفا هي التي تهب الإنسان كلّ غناه الدنيويّ، كالخيل والفيلة أمام داره، والنساء الجميلات اللواتي يخدمن في منزله. والتعبير (في السنسكريتيّة) "Siva Poojaa vidheh phalam"، الذي يردّ في تلك الآيّة، يظهر بحيث يقول إنّ كلّ الغنى يتأتّى عن مزاوله البوجا بشكل خاطئ. والمراد بذلك أنّ البوجا، عندما تمارس بشكل صائب، تصل بالإنسان إلى الله. وثمّة حكاية عن لصّ رئيس ادّعى الإخلاص، وكان يمارس البوجا بعناية تجاه الإله شيفا كلّ يوم، كي يجذب انتباه ملك تلك البلاد. وبعد أيّام، جاء الملك بنفسه ليسلم على المدّعي. وهذا ما فتح أعين السارق على الحقيقة. فإذا استطاع بادّعاء الإخلاص أن يجعل الملك يزوره، فإنّه قد يصل إلى الله لو صار مخلصًا لهحقًا.

ولذا نقول إنّّه يجب تدريب اللسان على ذكر الله دومًا. فما نفكر فيه في أوقات يقظتنا، نراه في أحلامنا. وكذلك اللسان، إذا ما درّبناه على ذكر اسم الله في كلّ حال، فسيستزّرع إلى الله من تلقاء نفسه في تلك اللحظة التي تغادر فيها الحياة الجسد، وعندما يستحيل على الميّت تذكّر الله واعيًا.

بعض الناس لا يرى العناية الإلهيّة ضروريّة، بل كلّ ما يحتاجه الإنسان هو السلوك الحسن. إنّها رؤية خاطئة. فالسلوك الحسن من غير تقوّي كالزهرة من غير رحيق وعندما كان أهل هذا البلد يحاربون من أجل الاستقلال، ويقدمون التضحيات الجمّة، كان شعار الناس حينها "البلد أولًا، وكلّ شيء آخر بعدها". وكانت لي فرص سألت بها القادة ما إذا كان صوابًا كلّ هذا التركيز على البلد، وتأخير الله والدين إلى الخلفيّة. وكان جوابهم أنّ الاستقلال إذا حصل، فكلّ



العمل بين الخلق الدينية وقيم الحداثة: قراءة في التجربة الإسلامية
علي بن مبارك

يكتسب العمل قيمةً إنسانيةً ملحّةً، به تتحدّد إنسانية الإنسان، ومن خلاله يسود العمران، وتزدهر الثقافات. ولذلك، اهتمّت كلّ الحضارات القديمة والمعاصرة بالعمل، فشجّعت عليه، ووضعت القوانين الضابطة له، والمؤسّسات المشرفة عليه. ويعكس العمل مجموعةً من الحاجات الأساسيّة التي يسعى صاحب العمل، أو العامل، إلى تحقيقها. فمذد العصور القديمة، أدرك أصحاب الإقطاع والنبلاء أهميّة ما يقدّمه الآخرون من خدمات وأشغال، وحاولوا الاستفادة من مجهودهم وخبرتهم، واستغلال طاقاتهم مقابل أبسط الأجور، وأحقر الهبات. وتجدّد ذلك من خلال استعباد الناس، واسترقاقهم، وتسخيرهم للعمل مدى الحياة. وحتّى يكتسب أصحاب الأعمال رضى العمّال المستغلّين المستضعفين، وضعوا لهم مجموعة من المنظومات الأخلاقية والدينية، تُكرّس الخنوع، وتشجّع الاستعباد، وتجعل من التمرّد والاحتجاج والتوقّف عن خدمة السيّد معصيةً وشذوذاً.

لم تكن أخلاق العمل عندها غير معزوفة جميلة، وحزينة، ألّفها أصحاب المال والأعمال، واستمتع بها الكادحون البؤساء. وجاءت الديانات التوحيدية الإبراهيمية لتصدح باسم أولئك المستضعفين، وتكشف عن همومهم وأحلامهم. ولذلك، كان أتباع الديانات في أغلبهم من عامّة الناس ومستضعفيهم. وحاولت التقاليد الدينية الإبراهيمية، اليهودية والمسيحية والإسلامية، أن تعدّل من المنظومات الأخلاقية السائدة من دون أن تقطع معها. فالثورة في مجال الأخلاق ليست بالأمر الهين. ويحتاج تغيير المنظومات الأخلاقية قرونًا من الزمن. ولذلك جاء الأنبياء والقديسين لإتمام مكارم الأخلاق، كما جاء في الحديث النبوي الشريف^١. وقد انتقدت تعاليم الأديان التوحيدية الظلم والقهر والاستغلال، وبشّرت بالعدل والكرامة والاعتدال، وأسّست لأخلاق جديدة تشجّع على العمل والكسب الحلال والإنتاج والإبداع وتحقيق التنمية والاستقرار الاجتماعي؛ ولكن، هل من السهل على أصحاب الأعمال، وأهل الإقطاع، والأغنياء،

والمرتفين، والمحظوظين، والانتهازيين، أن يقبلوا بتغيير الأخلاق السائدة، والقيم المتوارثة؟ حاول هؤلاء قصارى جهدهم أن يحتوا الأنساق الدينية بعد أن فشلوا في محاربتها والقضاء عليها، واستقطبوا بعض رجال الدين ترغيبًا وترهيبًا، وأثروا بطريقة أو بأخرى في إرساء تعاليم دينية جديدة، وأخلاق بديلة تكاد تقطع مع نصوص التأسيس والفكر الدينيّ الأصيل، كما تجسّد في تجاربه الأولى. ويشمل هذا الكلام مختلف الديانات الإبراهيمية، وغيرها من الديانات الأخرى. أصبح رجال الدين يسكتون عن الظلم والقهر، وربّما يبرّرونه. فبحثوا عن الحجج والبراهين، وأولوا النصوص كما يحلو لهم، واختفت أخلاق الدين السمحة أمام هيمنة الجهل والتخلّف والاستبداد، واختفت جرّاء ذلك محفّزات العمل والإبداع، فتراجعت الأمة وتخلّفت، لأنّ الشعوب التي لا تعمل لا يمكن لها أن تتقدّم.

كنّا نعتقد، في عصور الظلمات والتخلّف الحضاريّ، أنّ الأخلاق السائدة المشوّهة تعكس حقيقة الدين، وأنها أفضل أخلاق توجد في الكون، وأقربها إلى تعاليم الديانات الإبراهيمية ومقاصد الشريعة. ولم يكن اعتقادنا غير وهمٍ حافظنا عليه، وتوارثناه جيلاً بعد جيل، حتّى دقّت نواقيس الصدمة الحضارية الكبرى. إذ خرج العرب من بوتقة ثقافتهم المغلقة التي استمرت قرونًا من الزمن، وانفتحوا، مشرقًا ومغربًا، على الغرب وثقافته، فاستقبلوه وافدًا، ثمّ سافروا إليه مستكشفين، وحطّوا رحالهم في عواصم أوروبا، فكانت الصدمة، وكانت الحيرة؛ تزعزع الوهم، واكتشف رواد الإصلاح والنهضة أنّ الغرب تقدّم أشواطًا وحقّق نهضته في مختلف المجالات. تطوّر الاقتصاد، وازدهرت الثقافة، وانتشر التعليم والبحث العلميّ، وتهذّب سلوك الناس، وتساءلوا سؤالهم الخطير: لماذا تقدّموا وتأخّرونا؟

وصدّم رواد النهضة العربية أكثر حينما أدركوا من خلال المعاينة والمعايشة أنّ سرّ نجاح الأوربيين في النهضة والتقدّم يكمن في الأخلاق وحبّ العمل. هم وجدوا في أوروبا قوماً يعملون ولا يكلّون، يجتهدون

وروحيةً تُميّز فيها بين أخلاق العمل ومتطلبات الإيمان؟

أولاً: أهميّة العمل في ديانات التوحيد: المشروع الإسلامي نموذجاً

اعتبر الفكر الدينيّ الإبراهيميّ العملَ مسألةً أساسيةً، ومطلباً حياتياً لا مردّ عنه. ولذلك شجعت النصوص الدينية التأسيسية على العمل، وترك التواكل، والاعتماد على الذات. فالإنسان، حينما يعمل، ويبدل مجهوداً في عمله، يشعر بكيانه، ويحقّق وجوده في هذا الكون. وكما جاء في الأثر النبويّ: "ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده". فالعمل يحقّق الكرامة والعزّة، ويجعل من المرء قوياً ثابتاً، لا يخضع، ولا يهادن، ولا يتذلّل. وعلى العكس من ذلك، يرمي التواكل والكسل بالإنسان في أحضان الذلّ والهوان، فيصبح تابعاً، ضعيفاً، مهتزّ العقل والوجدان. وهنا ندرك فلسفة فرض العمل في الديانات الإبراهيمية عموماً، والإسلام بصفة خاصّة. ولنا في سيرة الأنبياء خير مثال وأبلغ عبرة. إذ لم يحلّ اصطفاء الأنبياء دون اضطلاعهم بأعمال تفتح لهم أبواب الرزق، وتحقّق لهم الكرامة والاستقلال. ولذلك اشتغل نوح بفنّ النجارة. وكذلك حال زكريّا. وكان لقمان يمتهنّ الخياطة، كما هو حال إدريس. ووجد داوود في صناعة الدروع مورد رزق له، فعمل واجتهد في هذا المجال. ولم يكن نبيّ الإسلام استثناءً، بل اشتغل صلى الله عليه وسلّم برعي الغنم والتجارة. وكان يجهد نفسه، ويتقن عمله، لأنّه كان على يقين بأنّ العمل عبادة؛ "ومن أمسى كالألم من عمله يديه أمسى مغفوراً له". وفي هذا السياق، ينزّل نداء المسيح: "اذهب إلى النملة أيّها الكسلان. تأمل طرّفها، وكن حكيماً؛ هي التي ليس لها قائد، أو عريف، أو متسلط، وتعدّ في الصيف طعامها، وتجمع في الحصاد أكلها. إلى متى تنام أيّها الكسلان؟ متى تنهض من نومك قليل نوم بعد قليل نعاس، وطبيّ اليمين قليلاً للرقود فيأتي فقرك كساع، وعوزك كغاز". لم يكن العمل في عرف الأنبياء غير اختبار لما تحلّوا به من قيم أخلاقية ربّانية، استحالت تعاليم وعبراً وحافزاً

في أعمالهم، ويتقنون مهنتهم، ويلتزمون بالمواقف والمواعيد، ويحاولون قدر المستطاع تجنّب ما يضرّ الناس. العمل عندهم عبادة، له طقوسه وتعاليمه، ولا يمكن الاستهانة بها، أو التراخي بشأنها، ونتج عن العمل وفرة المنتج، وتحسّن أحوال الناس، وازدهار المعمار والعمران، وترسيخ أركان الدولة، وتحقيق الأمن والسلم الاجتماعيّ. لم تكن هذه القيم في حقيقتها إلاّ صدَى للأخلاق الإسلامية الأصيلة، الداعية دوماً إلى تحصيل المصالح ودفع المفاسد. لم تكن أخلاق العمل المحفّزة على النهضة والرقى غير مقاصد الدين التي بشر بها الوحي، وتحمّس لها المؤمنون الأوائل. وازدادت الحيرة حيرةً إلى درجة أنّ أحد رواد الفكر الإصلاحية صرّح دون تردّد: "هناك في الغرب وجدت الإسلام ولم أجد المسلمين، وفي البلاد العربية وجدت المسلمين ولم أجد الإسلام". ويعكس هذا الكلام صدمة وألمًا. إذ قرّط المسلمون في قيمهم الإبداعية الأصيلة، بينما ارتكز غيرهم في حداثتهم على هذه القيم ذاتها، فطوّروها، وجعلوا منها قيماً حديثة كونيّة بامتياز.

لم يكن حديثنا عن العمل من خلال الخلق الدينيّ وقيم الحدّثة اعتباطياً. بل قصدناه حقّ القصد. فالخلق الدينيّ الإسلاميّ لا تتناقض في مقاصدها وروحها مع قيم الحدّثة المرتبطة بالعمل والإبداع. وعلى هذا الأساس، سنحاول أن نتجاوز الأفكار الدينيّة المشوّهة، وأن نجدّد الوصل مع القيم الأصيلة، كما عبّرت عنها نصوص التأسيس. إذ عكست التجربة الإسلاميّة التأسيسية وعياً أخلاقياً، وحسّاً حضارياً رقيقاً، حفّز المسلمين على العمل والمثابرة. ولكننا ندرك صعوبة دراسة التجربة الإسلاميّة معزولةً عن بقيّة التجارب الرّوحية. لذلك، حاولنا في هذا العمل المقارنة، واستحضار تجارب دينيّة إبراهيميّة أخرى، ساهمت بدورها في تطوير المنظومة الأخلاقية المتعلقة بالعمل والإنتاج.

ولنا أن نتساءل: كيف يمكن أن ننظر إلى العمل من منظور الخلق الإسلاميّ وقيم الحدّثة؟ وإلى أيّ مدى استطاعت التجربة الإسلاميّة أن تؤسّس مقاربةً ثقافيةً

من أجله الموادّ والهمم، ولكن قد ينتج عن هذا العمل عواقب وخيمة، فيُستعمل في دمار البلدان، وتدمير العمران، وتلوّث المحيط، وانتشار الفتق والحروب. فالشركات الحربيّة تبيع السلاح ذاته لعدّة أطراف متناحرة، فيقتلون بعضهم بعضًا. وهذا ما نلاحظه بجلاء اليوم في العراق وسوريا واليمن وليبيا بعد أن عصفت بهم رياح التغيير في الوطن العربيّ.

حينما تختفي الأخلاق، يصبح العمل سلاحًا ذا حدّين، قد ينفع وقد يضرّ. لذلك أكّدت الديانات الإبراهيميّة في نصوصها التأسيسيّة على البعد الأخلاقيّ المصاحب للعمل. فالعمل بدون أخلاق كالجسد بدون روح. وفي هذا الإطار اعتبر أبو حامد الغزاليّ "الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية"¹¹.

ويقوم تعريف الغزاليّ للأخلاق على مفارقة بين بعد ثابت وآخر متحرك. فأعمال الإنسان متغيّرة ومتبدّلة، والمرء يجتهد طوال حياته في إنجاز عدّة أعمال متشابهة ومتباينة، وربّما متناقضة في بعض الأحيان، لكنّ أخلاقه راسخة ومتجذّرة فيه، وتوجّهه الوجهة السقيمة، وتحذّره من كلّ مفسدة، وتجنّبه الضرر والإضرار. تعكس الأخلاق الراسخة ضمير المؤمن ونفسه اللوامة. وتعطي الأعمال قيمة مضافة، ومعنى إنسانيًا يقوم على المحبة والاحترام. ولذلك، لا يمكن فصل الأخلاق عن الأفعال، فالسلوك "مظهر الخُلُق، ومرآته، ودليله"¹².

تتّصف الأخلاق، حسب الغزاليّ، بالرسوخ. وهذا لا يعني أنّ الأخلاق لا تخضع لقانون التغيّر والتطور. فالأخلاق - كما هو حال بقيّة المنظومات - تتغيّر، ولكنّ تغيّرها بطيء، لأنّها ترتبط مباشرة بضمير الجماعة وعاداتهم وتقاليدهم. ولذلك، عرّفت المعاجم العربيّة الأخلاق بأنّها "العادة والسجّية والمروءة والدين والطبع"¹³.

وقديماً قالت العرب: "ما بالطبع لا يتغيّر". بمعنى أنّهم تطبّعوا على مجموعة من الأخلاقيّات، من قبيل الكرم، وحبّ العمل، ونصرة المظلوم. فهذه قيم ثابتة في بناء الشخصية. ولذلك، لم يقطع الإسلام مع أخلاق ما قبله،

للدخول في ملة الإيمان والتوحيد. فأفضل دعوة للدين ما ارتكزت على الأخلاق الطيّبة، والسلوك السويّ النافع للبلاد والعباد. ارتبط عمل الأنبياء بالجدّ والإتقان واحترام المواقيت والالتزامات والصدق في القول والعمل. وما سُمّي رسول الإسلام الأعظم بالصدق إلاّ لصدقه في عمله، قبل الجهر برسالته. فقد عُرّف، صلّى الله عليه وسلّم، بأمانته وإخلاصه وصدق أقواله. كما جسّد الأنبياء تعاليم الربّ في الكون، ومقاصد رسالته، خلق الله البشر للمجاهدة والنضال من أجل تحصيل الأرزاق: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَنْشُورُ"¹⁴. وتعني هذه الآية، فيما ذهب القشيري في تفسيره، لطائف الإشارات: "إذا أردتم أن تضربوا في الأرض سهلاً عليكم ذلك"¹⁵. فالله سخّر لنا الأرض وما فيها لاستغلالها والعمل فيها فيما ينفع الناس، ويدفع عنهم الضرر. خلق الله البشر للعمل والمثابرة. وهذا ما نستشقه من قصّة الخلق والتكوين، "إذ أخذ الربّ آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها"¹⁶.

الطريف أنّ القرآن تحدّث عن العمل في صيغ مختلفة في عشرات المواضع. إذ احتوت آي القرآن حديثاً عن العمل من خلال مشتقاته الصرفيّة المختلفة: عمل، ويعملون، وتعملون، وعملوا، وأعمالهم، ويعمل، وغيرها. وجاءت هذه المصطلحات في سياقات دلاليّة مختلفة، ودلّت على معاني متباينة ومتغايرة، فأكّدت بذلك أنّ العمل لا نهاية له. فمجالات العمل مختلفة ومتعدّدة، وكلّها عبادة إذا التزمت بمنفعة الناس، وحفظ مالهم وعرضهم وحياتهم وكرامتهم، فالعمل، كما جاء في لسان العرب، المهنة والفعل¹⁷. وفي الحديث عن الفعل دعوة للمساهمة في تعمير الأرض وبناء الحضارة، وتلك هي رسالة المؤمن.

ندرك من خلال ما سبق أنّ العمل في المشروع الإسلاميّ لا يمكن فصله عن الأخلاق. فالعمل بدون أخلاق لا معنى له، ولا فائدة منه. وقد يتحوّل إلى آفة تضرّ الناس، أو خراب يدمّر البلاد والعباد. فصناعة الأسلحة المدمّرة عمل تُنفق في سبيله الأموال الطائلة، وتُسخر

بل جاء الرسول كي يتمم مكارم الأخلاق. وكذلك فعل المسيح وغيره من رموز الأديان وقادتها.

ارتبطت الأخلاق بصالح الناس، "وكان الله الصلاح الحق وطبيعته الصلاح"^{١٤}. فالعمل الصالح مرتبط بذات الله وصفاته. ولذلك تحدّث الوحي الإسلامي عن العمل الصالح وأعمال الصالحين. والصلاح أن تكون نافعاً لغيرك، وتحبّ له ما تحبّ لنفسك. فليس المهمّ أن يزعم المرء أنه ذو دين وأخلاق، بل الأهمّ من ذلك أن تتعكس تلك الأخلاق على سلوكه الاجتماعي، وكيفية أدائه أعماله، فالداعي بلا عمل كالرامي بلا سهم، كما يقول الإمام عليّ بن أبي طالب، والإيمان بلا أعمال ميت، كما قال المسيح^{١٥}. ولنا في تاريخ انتشار الإسلام خير شاهد على ما نقول. فقد استطاع الإسلام أن يدخل عدّة مناطق في العالم دون إراقة قطرة دم واحدة. إذ انتشر الإسلام في اندونيسيا وماليزيا وغيرها من الدول بفضل ما أظهره التجار المسلمون، ومن صاحبهم، من أخلاق نبيلة وسلوك حضاريّ راسخ. وقد اكتشف فيهم السكّان المحليّون نظافة القلب ونظافة الهمد، ووجدوهم عند الحاجة خير نصير ومعين، طابقت أقوالهم أفعالهم، فقرّبوا الناس من الإسلام. واعتنقوه وتحمّسوا لتعاليمه الداعية دوماً إلى العمل والمثابرة. وبناءً على ما سبق، نحتاج اليوم إلى مراجعة ذواتنا، وإعادة النظر في مفهوم الدعوة في حدّ ذاته. فالدعوة لا تكون بالترهيب والتخويف والتهديد وقطع الرؤوس وممارسة العنف والتظاهر بقيم لا يعكسها السلوك، ولا يؤيّدنها الواقع. الدعوة تكون بتطابق الأخلاق مع المنجز من الأعمال. وصاحب الخلق الدينية الناضجة والمتوازنة لا يحتاج إلى الوصف والكلام. فسلوكه وصف وأعماله خير كلام. كادت تنحصر رسالة آدم عليه السلام بعد خلقه في العمل والمثابرة، ولكنّه نسي رسالته، فكانت الخطيئة، وكان العقاب.

ثانياً: المداخل الأخلاقية الإسلامية المحفزة على العمل:

العمل وفق المقاصد

لا يمكن في هذا الحيز البحثي الضيق أن نتناول مختلف

المدخل الأخلاقية الإسلامية المحفزة على العمل. فهي كثيرة ومتنوعة ومن الصعب حصرها. بل لا نبالغ إذا ذهبنا إلى القول بأن رسالة الإسلام عموماً هي رسالة عمل. فالدعوة إلى العمل هاجس الوحي الأبرز. وأخلاق النبوة أخلاق عمل بامتياز. لذلك كان الرسول خلّفه القرآن. وتتمثل هذه الأخلاق أساساً في الصدق في العمل وإنقائه، والقيام بأعمال تطوعية تنفع الأفراد والجماعات.

١. الصدق في القول والإخلاص في العمل

لم يكن اختيارنا الصدق على رأس القيم الأخلاقية المتعلقة بالعمل صدفةً. بل قصدناه حقّ القصد. فالوحي الإسلامي تحدّث عن الصدق والصادقين في مواضع مختلفة^{١٦}، وجعل من الصدق ركيزة الإيمان، ومحور الإسلام، وجوهر كلّ إحسان. فغاية المؤمن أن يكون صادقاً مع الله والمجتمع ونفسه. وبقدر ما يتحقّق الصدق، يصبح الإنسان رسالياً نافعاً في محيطه، دافعاً لكلّ ضرر يصيبه، ويصيب غيره. ويُعتبر الصدق في المشروع الإسلامي جوهر كلّ عمل. فلا فائدة من عمل لا صدق فيه. وحينما يختفي الصدق في العمل، يتحوّل المرء إلى متحيّل ومناق ومتمكّسب، لا يفكر إلا في الربح والثراء. وما الصدق في أبسط معانيه إلا موافقة القول للعمل. وهذا يعني أنّ الكلام مرآة العمل، والعقد الذي توافقت عليه مختلف الأطراف. فالكلمة التزام لا يقلّ أهميّة عن الالتزامات النصّية. والمؤمن يلتزم بأقواله مهما كانت تداعيتها. وهذا الأمر انقلب في مسيرة حضارتنا الإسلامية رأساً على عقب. فأصبح الالتزام بالوعود أمراً نادراً. إذ كثّر الكلام وقلّت الأفعال. وهذا أمر يؤسف له. فغياب الصدق في الأقول نتج عنه غياب الإخلاص في العمل. فشاع التواكل والتكاسل والتحايل. لذلك ارتبط الصدق بالأخلاق في الثقافة الإسلامية. وحاول ابن علّان تبين العلاقة بين المصطلحين فقال: "الصدق أصل والإخلاص فرع، والصدق أصل كلّ شيء، والإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في الأعمال، والأعمال لا تكون إلا بهما"^{١٧}.

وندرك من خلال هذا الكلام أنّ الأعمال الصالحة والمفيدة تُعتبر غاية الغايات، ومقصد المقاصد. فالديانات ناضلت من أجل ترسيخ هذه القيم. والإسلام دعا أتباعه إلى العمل والكّد دون التفریط في الصدق والإخلاص. وكلّ عمل لا يقوم على الصدق تصيبه الأمراض والاضطرابات. فالصدق، كما جاء على لسان ابن قيم الجوزيّة، "روح الأعمال، ومحلّ الأحوال، والحامل على الأحوال... وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين... ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين"^{١٨}.

ونفهم من كلام ابن الجوزي أنّ الصدق يمثّل محور النبوة، وروحها المتواصلة إلى يوم الدين؛ به يتواصل العهد، وتتجدّد التعاليم، وتحقّق المقاصد. فالصادقون، مهما كانت انتماءاتهم الدينيّة والمذهبيّة والفكريّة، ورثة الأنبياء، وصوتهم المتجدّد. فالصدق لا دين له ولا وطن. ولذلك يمكن اعتبار الصدق في العمل منشوداً إنسانياً ناضلت من أجل تحقيقه كلّ الأديان والحضارات. وعلى هذا الأساس، دعت الديانات الإبراهيميّة إلى البرّ باعتباره إحساناً إلى الأهل والجوار وبقية الناس. وأكّد القرآن الكريم قيمة البرّ في علاقته بالصدق والإخلاص. وآية ذلك أنّ "الصدق يهدي إلى البرّ، والبرّ يهدي إلى الجنّة"^{١٩}؛ و"طوبى للمُصْطَهَدِينَ على البرّ فإنّ لهم ملكوت السّموات"^{٢٠}. فالصدق يجعل من المؤمن باراً، ويجعل من العمل، مهما كان نوعه برّاً وتقرباً من الله. ويصبح العمل من هذا المنظور عبادةً لا تقلّ أهميّة عن بقية العبادات. ويستطيع العمل من خلال هذه الخلفيّة الأخلاقيّة أن يحقّق الإتيقان والتميّز.

٢. إتيقان العمل والالتزام بالمواقيت

لا يمكن فصل الإتيقان عن قيمة الصدق في العمل. فالصادق في أقواله، المخلص في أعماله، لا بدّ أن يتقن ما أنجز. فالإتيقان نتيجة طبيعيّة لتطابق الأقوال مع الأفعال. والإتيقان، في أبسط مفاهيمه، أن تنجز عملاً وفق ما اتّفقت فيه مع المستفيد من العمل. فالعمل

تعاقد. ومن أخلاقيّات التعاقد الوفاء للعهد، والالتزام بنود العقد وشروطه - وإن كان شفاهياً. فالكلام بدوره تعاقد ملزم لمن يعرف قيمة الكلام. وجاء في القرآن الكريم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ"^{٢١}. وامتدح الوحي الإسلاميّ "الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ"^{٢٢}. وهذه صفة أخرى من جلائل صفات المؤمنين، تنحلّ إلى فضيلتين، هما فضيلة أداء الأمانة التي يؤمّنون عليها، وفضيلة الوفاء بالعهد"^{٢٣}. ونفهم من خلال تفسير ابن عاشور أنّ إتيقان العمل يرتبط بالوفاء بالعهد، والالتزام بما ضبط من مواقيت وشروط.

ولا غرابة أن نجد عشرات النصوص الدينيّة تحثّ على الإتيقان في العمل، وتجعل منه عنوان صدق وأخلاق، وباباً من أبواب الإيمان والإحسان. وجاء في الأثر النبويّ: "إنّ الله تعالى يحبّ من عامل إذا عمل أن يُحسن"^{٢٤}. كما جاء في حديث آخر، "إنّ الله يحبّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"^{٢٥}.

يتناقض الإتيقان مع الغشّ بكلّ أصنافه. وقد يكون الغشّ في الأقوال، أو الأفعال، أو في كليهما. وجدير بالذكر أنّ ظاهرة الغشّ انتشرت في أيّامها هذه بكيفيّة تشدّ الانتباه. ونادراً ما لا يتعرّض الإنسان في العصر الحديث إلى الغشّ والتحايل. وقد مسّ هذا المرض جميع القطاعات بما في ذلك الدين، والتعليم، والطبّ، والبحث العلميّ، وغيرها من المجالات التي يفترض أنّها تتنافى مع الغشّ. وأصبحنا اليوم نرى رجال دين ليس لهم من الدين غير الشكل، يدعون الناس إلى قيم ويأتون بخلافها، ويستغلّون العاطفة الدينيّة للتكسّب والتزيّن وتحصيل الامتيازات والمناصب، واستحال بعض رجال التعليم تجاراً وسماسرةً، يميّزون بين الطلبة، ويحتكرون بعض العلم لتقدمه إلى نخبة من طلبتهم في إطار دروس خصوصيّة تدرّ عليهم الأموال والهدايا. وكثرت سرقات الأعضاء والمتاجرة بها في مجال الطبّ، وأصبحت بعض المستشفيات تقدّم خدمات طبيّة باسئة ووديئة قد يتضرّر منها المرضى، فيزداد حالهم سوءاً، ورتباً انتهى بهم المأل إلى الوفاة.

وانشرت هذه الظاهرة المفزعة اليوم. إذ أفرز الفساد القائم في المجتمعات العربيّة منظومةً جديدةً قائمةً على المحسوبية والرشاوى. وأصبح المرء يلتحق بهذا العمل أو ذاك لا لكفاءاته العلميّة والعملية، بل بسبب وساطة اعتمدها أو رشوة قَدَمها. وينتج عن غياب الكفاءة انعدام الاتقان وخراب العمران، لذلك جاء في الحديث النبوي: "إذا وُسِدَّ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة".^٣

وانتظار الساعة تعبير مجازي يُقصد منه انتشار الفوضى وارتباك الكون. ويعكس هذا الحديث النبوي رؤيةً معرفيّةً استشرافيّةً عميقةً، تحتوي بُعداً عمرانياً استشرافيّاً. فالرسول الأعظم كان يدرك خطورة غياب الكفاءة في مجال العمل. فحينما يسود الغش واللامبالاة والاستهانة بأعمال الناس ومصالحهم يختل العمران ويتهاوى. ولم يكن هذا الكلام من باب المبالغة، بل كان حقيقةً. ونحن ندرك اليوم أنّ تقدّم الغرب لم يكن في واقع الأمر غير تقدّم في أخلاقيّات العمل، وحصر الأعمال في الكفاءات. فكلّ عمل يقوم به من كان قادراً عليه من حيث القدرات الجسميّة والمعرفيّة والفنيّة، فلا فائدة من عمل لا إنتاج فيه ولا إبداع، ولا إنتاج دون اعتماد الكفاءات في اختيار القائمين على الأعمال، فصاحب الكفاءة ينتج دون ملل أو كلل، ويبدع دائماً فيما يُنتج، فيزدهر الاقتصاد وتتقدّم البلاد. أمّا حال البلاد الإسلاميّة فيدعو إلى الشفقة؛ تخلف واضطراب وموت حضاريّ وإنتاج ضعيف. ومرّد ذلك في اعتقادي يعود إلى الاستهتار بقيم العمل، وضعف المردودية، وتراجع الحرفيّة. وحينما نقارن أنفسنا بالأمم المتقدّمة، ندرك البون الشاسع بين ما ننتجه وما ينتجون، وما يحصل من فائدة عندنا وما يحصل من فائدة عندهم.

٣. الرفق وحسن المعاملة

تقتزن الأعمال في المشروع الإسلاميّ بالرفق وحسن المعاملة، فالعلاقة بين العامل وصاحب العمل لا بدّ أن تقوم على التوادد والتراحم. فالملك لله. وما البشر إلّا أوصياء على هذا الملك. ومن المؤسف أن يتحوّل الملك

ولم يكن البحث العلميّ أفضل حالاً. إذ تُنفق أموال طائلة من أجل بحث علمي لا يُقدّم منفعةً للبلاد والعباد. وكم من باحث يكتفي باستعارة ما ذكره غيره، أو سرقة مجهود قام به آخرون. ونكتشف من خلال هذه النماذج البسيطة أنّ العمل يشكو أزمةً أخلاقيّةً حادّةً. إذ تراجعت أخلاق العمل النبيلة القائمة على مقاصد الدين، واستبدلت بأخلاق جديدة تقوم على الوصوليّة والانتهازية والثراء الفاحش.

لا ينحصر الإتقان في حسن القيام بالعمل فحسب. بل يكمن أيضاً في احترام المواقيت المتفق عليها. فكلّ عمل يستغرق مدّةً زمنيّةً محدّدةً، يقع الاتفاق عليها، ويلتزم الجميع بها. وما قسم القرآن بالعصر والفجر والضحى إلّا دليل على أهميّة الزمن في المنظومة الإسلاميّة. ازدهر المسلمون، وشيّدوا حضارةً عملاقةً، حينما كانوا يحترمون المواقيت والمواعيد. ولم يجد هارون الرشيد غير ساعة يهديها لشارلمان ملك فرنسا. فالساعة دليل على احترام الوقت، والرغبة في استثماره حقّ استثمار. فالوقت كالسيف إذا لم تقطع به قطعك. وإذا تهاونت به تراجعت وتخلفت. ولا نبالغ إذا قلنا بأنّ احترام الغرب لعنصر الزمن كان سبب تقدّمه وتفوّقه. ويمكن للمرء أن يقاضي شخصاً، أو مؤسّسةً، بسبب تهاون في احترام المواقيت والأزمنة. ونجد في كتب السيرة نصوصاً كثيرةً تؤكّد أهمية المواقيت في الثقافة الإسلاميّة.

ارتبط الإتقان في العمل بالكفاءة والقدرة عليه. فمن غير اللائق أن يشتغل المرء في مجال لا يفهمه. فكم من نجار لا يفهم النجارة، وكم من بناء لا يحسن فنّ البناء، وكم من مسؤول لا يفقه شؤون الإدارة والقيادة، ومثل ذلك كثير. بل قد نجد أشخاصاً يشتغلون في كلّ مجال، ويميلون حيثما مال العمل المطلوب. وينتج عن غياب الكفاءة ضعف المنتج وردائه في أغلب الأحيان، وغالبا ما يتضرّر الناس بسبب غياب الحرفية وهيمنة المتطفّلين، وعلى هذا الأساس أكّد الإسلام على كفاءة العاملين، فكلّ عمل له صاحبه، يتقنه ويبدع فيه، وينفع الناس من خلاله، ولكنّ المشكلة أنّ البعض يتطفّل، فيقوم بأعمال لا يمتّ لها بصلة،

والخسارة. فالعامل رايح في كل الأحوال، ولا يخسر مطلقاً مهما كان مدخوله المادّي، لأنّ العمل عبادة وصدقة، توفّي أكلها كلّ حين ويوم الحساب. وعلى هذا الأساس لا ترتبط قيمة العمل بمدخوله الماليّ المباشر، بل تكمن قيمته في ذاته. وهنا يتنزّل نداء الرسول الأعظم: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألاّ يقوم حتّى يغرسها، فليغرسها، فله بذلك أجر"^{٣١}. فقيمة العمل لا تكمن في مردوده فحسب، بل في بعد الأخلاقيّ الوجوديّ. وبناءً على ما سبق، نفهم فلسفة العمل التطوّعيّ في الإسلام وغيره من الديانات الإبراهيميّة.

تنبّهت أغلب الحضارات القديمة إلى أهميّة العمل التطوّعي القائم على منفعة الناس دون مقابل ماليّ أو امتيازات أخرى، فخير الناس أنفعهم للناس. ونجد صدى هذه التعاليم في الديانة المسيحيّة. إذ شجّع المسيح على القيام بأعمال دون انتظار المقابل المادّي. وجاءت دعوته صريحة: "مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا"^{٣٢}؛ و"ما جئت لأخدم بل لأخدم"^{٣٣}. فالحياة ليس فقط كسباً وارتزاقاً، بل هي أيضاً نفع وأخلاق. ومن المفيد أن تنفع غيرك، وتدفع عنه الضرر؛ "لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه"^{٣٤}. ولذلك شجّع الرسول الأعظم على إناطة الأذى عن الطريق، ودفع المفاسد والأضرار، ونظافة المحيط، ورحمة الكبير والصغير، وغيرها من الأعمال التطوّعيّة النبيلة.

ونخلص بالقول أنّ العمل قيمة أخلاقيّة كونية. فكلّ الشعوب تتفق على ضرورة إتقان العمل وحسن معاملة الآخرين واحترام المواقيت والمواعيد وتجنّب الغشّ والتحيّل. واستحالت هذه القيم وجهاً من وجوه الحداثة، وعنواناً من عناوين المعاصرة. ولا خيار لنا إلاّ أن نحافظ على هزم القيم ونطوّرها، ونجعل منها سلوكاً ثقافياً واجتماعياً. فثقافة العمل لبنة أساسية في بناء الشخصية وتربيتها. ونحتاج اليوم إلى التربية على العمل، في الأسرة والمدرسة والجامعة والمجتمع، علّنا نضنع جيلاً جديداً، يحبّ العمل، ويعشق الإتقان، ويحتهد من أجل منفعة الآخرين وراحتهم.

إلى لعنة وجبروت، يستغلّه بعض الميسورين وأرباب الأعمال لإذلال العاملين عندهم، وبخسهم حقّهم، واستغلالهم، وتحوّل علاقات العمل بموجب ذلك إلى علاقات ماديّة تخضع فقط إلى ثنائية الربح والخسارة. ولذلك عملت المنظومة الإسلاميّة كما هو حال بقيّة المنظومات الإبراهيميّة على دعم البعد الروحيّ في العمل، وتأكيد البعد الإنسانيّ، فأخلاق العمل ترتبط بكلّ الأعمال التي نجزها، و"رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى"^{٣٥}.

وتعني السماحة في الأعمال حسن الأدب والرفق في المعاملة؛ "إنّ الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا يُنزع من شيء إلاّ شانه"^{٣٦}. وحتى يرسخ الإسلام هذه القيم حضاريّة، خصّ كلّ قطاع بتعاليم مخصوصة. فتحدّث عن أخلاق الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم والتمريض والبناء وغيرها من مجالات الحياة، ونهى التجار عن الغشّ في الميزان؛ "وَيْدٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ"^{٣٧}. ودعاهم إلى الصدق في القول، والإخلاص في العمل، وعدم المبالغة في تحصيل الأرباح، ونصيحة الناس، وبيع الصالح والمفيد، ومساعدة المحتاجين. ولقد استأنس المسلمون بهذه القيم النبيلة، فاعتمدها سلوكاً، وسافروا بها إلى عدّة بلدان. فكانوا مثلاً يحتذى به في الأخلاق والصدق وحسن المعاملة. وكانوا بأخلاقهم العمليّة سبباً في دخول عدّة أمم إلى الإسلام.

٤. أهميّة العمل التطوّعي في المنظومة الإسلاميّة

حارب الإسلام الفكر المادّيّ الصرف، فالعلاقات في مجال الأعمال والمعاملات لا تخضع دائماً إلى جدليّة الربح والخسارة. فالعائد الماليّ مفيد عند العمل، ولكن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. فمعاني الحياة تتجاوز حدود المادّة لتحضن الإنسان في مفهومه العامّ. فالذي يغرس شجراً يسهم في تعمير الكون وترسيخ العمران؛ "ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة"^{٣٨}. ونلاحظ بجلاء أنّ هذه التعاليم لا تخضع لقانون الربح

- ١ باحث في الحضارات والأديان.
- ٢ مالك بن أنس، الموطأ، حديث عدد ٢٦٣٣.
- ٣ قال محمّد عبده هذه القولة الخالدة بمناسبة مشاركته في مؤتمر باريس سنة ١٨٨١، ثمّ شاعت في الأدبيّات الإصلاحية إلى اليوم.
- ٤ رواه البخاري.
- ٥ جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٨)، حديث عدد ٨٥٣٢.
- ٦ الكتاب المقدس المسيحيّ، الأمثال ٦: ٦ - ١١.
- ٧ سورة الملك: الآية ١٥.
- ٨ موقع مؤسسة آل البيت للتفاسير: www.altafsir.com
- ٩ التكوين ٢: ١٥.
- ١٠ ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار الحديث، ٢٠١٣)، الجزء ١١، الصفحة ٤٧٥.
- ١١ أبو حامد محمّد بن محمّد الغزاليّ، إحياء علوم القرآن (بيروت: دار المعرفة)، الجزء ٣، الصفحة ٥٣.
- ١٢ محمّد عبد الله دراز، دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعيّة والدولية (الكويت: دار القلم)، الصفحة ٨٩.
- ١٣ ابن منظور، لسان العرب (القاهرة: مكتبة التراث)، الجزء ١٠، الصفحتان ٨٥ و٨٦.
- ١٤ متى ١٩: ١٢.
- ١٥ يعقوب ٢: ٢٦.
- ١٦ من ذلك قوله تعالى: "هُذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ" [سورة المائدة، الآية ١١٩]: " وَقُلْ رَبِّ اَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقِيْ وَاَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقِيْ " [سورة الإسراء، الآية ٨٠].
- ١٧ محمّد بن علان الصديقي الشافعي، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (القاهرة: دار الريان، ١٤٠٧هـ)، الجزء ١، الصفحة ٢٠٢.
- ١٨ ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، تحقيق: عبد المنعم صالح العليّ العربي (دار قتيبة للطباعة والنشر، ١٩٩٧)، الجزء ٢، الصفحة ٢٧٠.
- ١٩ صحيح مسلم، حديث عدد ٦٢٠٧.
- ٢٠ متى ١٠: ٥.
- ٢١ سورة المائدة: الآية ١.
- ٢٢ سورة المؤمنون: الآية ٨.
- ٢٣ محمّد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، اعتمدنا موقع مؤسسة آل البيت لتفسير القرآن: www.altafsir.com
- ٢٤ محمّد ناصر الألباني، صحيح الجامع الصغير (بيروت: المكتب الإسلاميّ، ١٩٦٩)، حديث عدد ٤١٢٤٣.
- ٢٥ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شُعب الإيمان، تحقيق محمّد السعيد زغلول (بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٨)، حديث عدد ٥٣١٣٠.
- ٢٦ أخرجه البخاري، حديث عدد ٦٤٩٦.
- ٢٧ حديث صحيح.
- ٢٨ أخرجه مسلم، حديث عدد ٢٥٩٨.
- ٢٩ سورة المطففين، الآيتان ١ و٢.
- ٣٠ أخرجه مسلم.
- ٣١ أخرجه أحمد في مسنده.
- ٣٢ متى ١٠: ٨.
- ٣٣ متى ٢٨: ٢٠.
- ٣٤ أخرجه البخاري.



أخلاقيات العمل في رؤيتي العقل والنقل محمود الذوادي^١

تعريف العمل

يُقصد بمصطلح العمل، في العلوم الاجتماعية، المعنى الشامل الذي يتضمّن أيّ نوع من أنواع العمل، بديناً كان، أو عقلياً، أو عمل الآلة أو القوى الطبيعية. وبالتحديد يقسم العمل إلى أصناف فرعية تتلخّص في التالي: عمل يدويّ، وعمل عقليّ/فكريّ، وعمل إداريّ، وعمل بسيط، وعمل متخصصّ^٢. ومن جهة أخرى، يُعرّف علم الاجتماع العمل بأنّه ذلك النشاط الذي يُنتج من خلال البشر في عالم الطبيعة، وبفضله يحافظون على بقائهم. ولا ينبغي التفكير في العمل باعتباره يقتصر فقط على العمل المدفوع الأجر. فقد كانت الثقافات التقليدية ذات نسق نقديّ متدنٍّ، ولم يكن هناك سوى عدد محدود جدّاً من الناس الذين يعملون لقاء أجر نقديّ. وفي المجتمعات الحديثة نفسها، لا يزال هناك العديد من أمّاط العمل المنزليّ - التي لا تنطوي على الحصول على أجر نقديّ أو رواتب. ونظراً للتغيّرات الكثيرة التي عرفتها ظاهرة العمل في المجتمعات البشرية عبر العصور، فإنّه لا بدّ من أخذ ذلك بعين الاعتبار في الإطار الفكري الذي سيتمّ فيه تحليل العمل وأخلاقيّاته من خلال نصوص الآيات القرآنيّة على الخصوص^٣.

تعريف الأخلاقيات

تعني مفردة الأخلاقيات الأحكام القيمية التي تنصبّ على الأفعال الإنسانيّة، من حيث هي خير أو شرّ. فالسلوك الخلقيّ، بهذا الاعتبار، هو ذلك السلوك الذي تبناه المجتمع وأقرّه في الممارسة. إنّهُ سلوك يتكوّن من مجموعة من القواعد التي تبيّن للأفراد كيف يجب أن يتصرّفوا في الحالات والمواقف التي تعرض لهم من دون أن يخالفوا في ذلك ضمائرهم، أو العرّف السائد في مجتمعاتهم^٤.

موضوع البحث

ليس من المبالغة القول إنّ دراسة العلوم الاجتماعية لظاهرة العمل في المجتمعات البشرية بلغت أوجها في القرنين العشرين والحادي والعشرين، الأمر الذي أدّى إلى الاهتمام بقضايا مختلفة في مجال العمل والشغل، مثل أخلاقيات العمل، وشدّة الانهماك فيه (برن أوت^٥). ونظراً لأهميّة موضوع العمل في المجتمعات المعاصرة، فإنّ إحدى المجلّات الفرنسيّة قد أصدرت اليوم عدداً كاملاً خاصّاً بموضوع العمل، تحت عنوان: "تغيير العمل (٢٠) طريقة لتحسين نوعية الحياة في العمل"^٥. نقتصر هنا على ذكر بعض مواضيع العمل التي كتب

لنا عن ظاهرة العمل وأخلاقياتها من خلال رؤية علم العمران البشريّ الجديد النشأة في القرن الثالث عشر ميلادياً.

حديث ابن خلدون عن العمل

يفرد ابن خلدون الباب الخامس من مقدّمته للحديث عن الكسب والرزق اللذين يؤمّنان معاش الإنسان. يعرّف ابن خلدون الرزق بأنّه ذلك الشيء الذي تعود منفعته على الشخص، وتلبّي مصالحه وحاجاته.^٧ أمّا الكسب فهو ذلك الشيء الممتلك نتيجة سعي المرء وقدرته. يؤكّد صاحب المقدّمة على ضرورة السعي/ العمل في اقتناء كلّ من الرزق والكسب: "اعلم أنّ الكسب إنّما يكون بالسعي في الاقتناء، والقصد إلى التحصيل، فلا بدّ في الرزق من سعي وعمل... فلا بدّ من الأعمال الإنسانية في كلّ مكسوب ومتموّل"^٨. يرى ابن خلدون وجود علاقة وثيقة بين العمل والعمران البشريّ: "واعلم أنّه إذا فُقدت الأعمال، أو قلّت بانتقاص العمران، تأدّن الله برفع الكسب. ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن، كيف يقلّ الرزق والكسب فيها؟"^٩. ثمّ يأتي ابن خلدون لتوضيح الصلة بين الرزق والكسب وما يسمّيه المعاش فيقول: "اعلم أنّ المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله، وهو مفعّل من العيش. كأنّه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلّا بهذه، جعلت موضعاً على طريق المبالغة. ثمّ إنّ تحصيل الرزق وكسبه إمّا أن يكون بأخذه من يد الغير، وانتزاعه بالاقتدار عليه، على قانون متعارف، ويُسَمّى مغرماً وجباية"^{١٠}. إنّ، فالعمل أساس للمعاش/ للحياة في مجالاتها المختلفة، مثل الفلاحة والتجارة والصناعة. يُلخّص صاحب المقدّمة هذه الملاحظات في قوله: "فهذه وجوه المعاش وأصنافه، وهي معنى ما ذكره المحقّقون من أهل الأدب والحكمة كالحريري وغيره، فإنهم قالوا: 'المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة'"^{١١}.

ونظراً إلى أنّ العمل هو السبيل السليم للرزق والكسب، فإنّ ابن خلدون يشنّ هجوماً على من

فيها وعنها، في هذا العدد الخاصّ للمجلة، المشاركون المختصّون في ميدان ظاهرة العمل في العصر الحديث: العمل والوقت والتغيّر؛ مواجهة الضغط في العمل؛ هل نستطيع إدارة الأمور عبر الثقة؟؛ العمل، التنظيمات، الشغل: النماذج الأوروبية؛ حلّان لكسب الرهان ضدّ البطالة؛ وغيرها. ينتهي هذا الملفّ حول العمل برؤية العلوم الإنسانية والاجتماعية بفهرسة مختصرة لأبرز العناصر التي يعرفها العمل في القرنين العشرين والحادي والعشرين، مثل الانهماك المهنيّ (برن آوت) المعروف بشرّ العصر الحديث، أو مرض العصر الحديث، وضغط/وطأة العمل والثقة في مكان العمل، والمناخ الاجتماعيّ السائد بين العاملين، وغير ذلك من الظواهر المقترنة بأصناف العمل المختلفة، والمتخصّصة، والمنتشرة في المجتمعات المتقدّمة على الخصوص.

ومن جهة أخرى، يطمح هذا البحث إلى تقديم خريطة لاستعمال كلمة عمل في آيات القرآن الكريم، سعيّاً وراء كشف الحجاب عن وجوه أخلاقيات العمل في الإسلام، باعتبار أنّ القرآن هو المصدر الأول للدين الإسلاميّ في شتى المجالات. كما سوف نعزّز ذلك، من حين إلى آخر، بما ورد في الفكر الإسلاميّ، لدى العلماء والفقهاء، حول العمل. ونستعين أيضاً برؤية العلوم الاجتماعية حول العمل وأخلاقياته. يمثّل ابن خلدون رائداً عربياً مسلماً في الكتابة عن العمل، في مقدّمته الشهيرة برؤية علم العمران البشريّ الجديد، الذي تحتضن مفاهيمه ومقولاته ونظريّاته المستحدثة أبواب المقدّمة وفصولها. يعبرّ صاحب المقدّمة عن ابتكارات علمه الجديد في الجمل التالية: "وكأنّهذا علم مستقلّ بنفسه، فإنّه ذو موضوع، وهو العمران البشريّ والاجتماع الإنسانيّ، وذو مسائل، وهو بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. وهذا شأن كلّ علم من العلوم، وضعياً كان أو عقلياً. واعلم أنّ الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدّى إليه الغوص"^{١٢}. لندع تحليلات صاحب المقدّمة تفسّح

آل عمران: الآية ١٩٥]:
 "أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"
 [سورة آل عمران: الآية ٢٢]:
 "وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ" [سورة
 يونس: الآية ٤١]:
 "وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ"
 [سورة آل عمران: الآية ٥٧]:

معنى مفردة العمل

تشير الآيات القرآنية إلى أن كلمة "عمل" تُستعمل في معنيين رئيسيين في سور القرآن. ففي الصنف الأول تفيد معظم الآيات إلى أن مفردة عمل في أشكالها المتعددة تعني السلوك أو الفعل.

أما المعنى الثاني لفعل "عمل" فهو يفيد العمل كنشاط يُبذل فيه الجهد البشري على المستويات المادية وغير المادية لتحقيق أهداف معينة. يبدو أن أكثر الآيات تعبيراً عن هذا المعنى هي الآية ١٠٥ من سورة التوبة. إنها الآية الأم التي يرجع إليها كل من يود إبراز قيمة العمل في أخلاقيات الإسلام. وهناك مشروعية لذلك. فالآية تمثل مناشدة للرسول وللمؤمنين في صيغة الأمر (وقل أعملوا). ولا يخفى في هذا السياق أن الآية هي من سورة التوبة، وبالتالي فدعوتها القوية لأهمية العمل يمكن تأويلها على أن العمل هو فعل لصالح التوبة على المسلمين، مثله مثل ما ورد في آية سابقة لها في نفس السورة: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا" [الآية ١٠٣].

ومن جهة أخرى، فهناك في القرآن الكريم آيتان لا تُستعمل فيهما كلمة عمل، لكن مضمونهما يشير بقوة إلى مدى أهمية العمل. فآية سورة الجمعة [الآية ١٠] تحت بشفاية كاملة على العمل كواجب ديني بعد أداء الفريضة الدينية (صلاة الجمعة): "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ". ففعلاً "فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله" هما في صيغة الأمر، ويفيدان العمل الديني بعد صلاة الجمعة مباشرة. أي إن الآية

يسعى للحصول على ذلك بغير العمل، مثل الذين يبتغون الأموال من الدفائن والكنوز، إذ هي ليست بالمعاش الطبيعي. ومن ثم، فهي بعيدة كل البعد عن مثل أخلاقيات العمل السليمة: "اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول في الأمصار، يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض، ويبتغون الكسب من ذلك"^{١٣}. فهذا النوع من السلوك لا يعبر عن خلل ومرض في العقول والنفوس فحسب، بل هو أيضاً منحرف عن وسائل العمل الطبيعية للحصول على المعاش بواسطة الرزق والكسب. والذي يحمل على ذلك في الغالب، زيادة على ضعف العقل، إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب، من التجارة والفلح والصناعة، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة، وعلى غير المجرى الطبيعي، من هذا وأمثاله، عجزاً عن السعي في المكاسب، وركوناً إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه"^{١٤}. ويخلص صاحب كتاب العبر من انتقاده لمثل ذلك السلوك قائلاً: "فيحتاج من وقع له شيء من هذا... أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك"^{١٥}.

كلمة العمل في القرآن الكريم

يتجاوز ذكر كلمة عمل في آيات القرآن الكريم ٣٠٠ مرة في أشكال مختلفة، كالفعل والاسم وغيرهما من مشتقات فعل "عمل". لنذكر الآن عينة من تلك الآيات التي تُستعمل فيها كلمة "عمل" في صيغها المختلفة:
 "وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله" [سورة التوبة: الآية ١٠٥]:

"يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا"
 [سورة المؤمنون: الآية ٥١]:

"وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ دَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ" [سورة النساء: الآية ٤٠]:

"الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" [سورة الملوك: الآية ٢]:

"أَيُّ لِي لَأُضِيعَ عَمَلٌ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ دَكَرٍ أَوْ أَنْثَى" [سورة

القول إن أخلاقيات العمل في القرآن تتعدى البعد المادي أو الفكري للعمل لتشمل كل السلوكيات البشرية التي تنفع أو تضرّ الناس ومجتمعاتهم. وبعبارة أخرى، فالقرآن يتبنّى منظوراً ذا آفاق رحبة بالنسبة لمعنى كلمة "العمل" وفروعها. أي إن العمل يضمّ كل سلوكيات الأفراد والجماعات والمجتمعات، وما يترتّب عنها من أخلاقيات تعمل لصالح هؤلاء جميعاً أو ضدهم. وبهذا التصوّر الرحب لمعنى العمل في المنظور القرآنيّ يمكن القول بأنّ النظر للعمل كسلوك عامّ شامل لكلّ أنشطة الناس يجعل من العمل القوّة الأولى المحركة لنبض حياة هؤلاء ومجتمعاتهم وحضاراتهم على وجه الكرة الأرضية. فهذا التصوّر القرآنيّ للعمل باعتباره سلوكاً عامّاً يجعله يشبه الماء كأساس ضروريّ لكلّ معالم الحياة. أي إنّ كما لا تتحقّق الحياة على وجه الأرض في كلّ الكائنات والمخلوقات دون ماء، فإنّ الجنس البشريّ يفقد تأهله للخلافة في هذا العالمواكون إذا لم يلتزم بأخلاقيات العمل كسلوك عامّ يشمل كلّ أفعال الأفراد والمجتمعات والحضارات. ويتعبّر العلوم الاجتماعية، يجوز القول إنّ مفهوم العمل في القرآن قد حوّل هذا المفهوم من الشكل الضيق والمحدود (الميكرو) المستعمل في بحوث العلوم الاجتماعية إلى الشكل الواسع الكبير (المكرو)، ليشمل معنى العمل كلّ أنشطة بني البشر. أي إنّ العمل في هذا التصوّر يصبح عصياً للحياة لدى الأفراد والمجتمعات والحضارات. فكسب رهان النجاح والفلاح في مسيرة هؤلاء لا يمكن أن يتمّ على الوجه الأفضل إلّا عندما يتحوّل مفهوم العمل من "الميكرو" إلى "المكرو".

الإيمان والعمل

هناك ما يقرب من خمسين آية قرآنية يتلازم فيها الإيمان بالعمل الصالح، مثل العيّنة التالية:
 "فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" [سورة الحج: الآية ٥٠]؛
 "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ" [سورة العنكبوت: الآية ٧]؛

لا تدعو أن يكون يوم الجمعة يوم إجازة كاملة كما هو معمول به في معظم المجتمعات الإسلاميّة اليوم. وفي ذلك إشارة واضحة إلى مناداة القرآن الكريم بقيمة العمل، وحثّه وحرصه عليها.

أما الآية الثانية التي تشير إلى أنّ السعي والعمل أمران مطلوبان من كافّة الناس هي الآية ١٥ في سورة الملك: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ". فالإشارة هنا إلى أهميّة السعي والعمل على وجه الأرض إشارة واضحة المعالم لا تكاد تحتاج إلى بيان. فالأمر بالمشي (فامشوا في مناكبها، أي الأرض) هي دعوة صريحة وملحة على بني البشر لكي يتبنوا الحركة والنشاط في الحياة الدنيا على وجه هذه الأرض للحصول على الرزق والكسب بالتعبير الخلدونيّ. وهكذا، فأيتا سورتي المملكو الجمعة تتضمّنان مناشدةً قويّة لرفع علم أخلاقيات الالتزام بالعمل والكّد مرفقاً في المجتمع المسلم وغيره. وبعبارة أخرى، فالإنسان يفقد إنسانيّته الكاملة إن هو لم يتبنّى العمل كسلوك دائم مدى الحياة. فيجوز بهذا الصدد صياغة أولويّة العمل للإنسان بتعديل مقولة الفيلسوف ديكارت المشهورة "أفكر، إذًا، فأنا موجود" لتصبح في مقولة هذا البحث: "أعمل، إذًا، فأنا إنسان". وبالتأكيد، تمثّل أطروحة هذه الصيغة الفكرية المبتكرة لعلاقة العمل بإنسانيّة الإنسان ذاتها أسمى أخلاقيات العمل.

العمل = سلوك

كما ذكرنا من قبل، فأغلبية الآيات القرآنية تستعمل كلمة العمل ومشتقاتها في معنى السلوك. وهي تشبه بهذا الاعتبار منظور علم النفس السلوكيّ (البيهيافيوريزم) الذي ينظر إلى كلّ ما يفعله الناس تقريباً على أنّها أماط سلوكية لأفعال بني البشر. ومن ثمّ، فمفردة العمل ومشتقاتها ذات أبعاد فسيحة جدّاً في الرؤية القرآنية تتجاوز المعنى الضيق والمحدود للعمل، ذلك الفعل الماديّ، أو الفكريّ، الذي يقوم به الناس بدون أجر، أو مقابل أجر، كما هو سائد في المجتمعات الحديثة على الخصوص. وهكذا يجوز

"يُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" [سورة الطلاق: الآية ١١].

فمعروف أن العمود الفقري في العقيدة الإسلامية هو مبدأ التوحيد. أي الإيمان بالله الواحد الأحد الذي تلخصه سورة الإخلاص أحسن تلخيص: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ". ونظرًا للأهمية القصوى لفكرة التوحيد المطلق، فإن القرآن يؤكد أن باب الغفران مفتوح للناس ما عدا المشركين، كما تبرز هذه الآية [١١٦] من سورة النساء: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ". وبعبارة أخرى، فالإيمان بإله واحد في الدين الإسلامي هو بيت القصيد، وأساس كل شيء في العقيدة الإسلامية. فهو أقدس كل المقدرات في الإسلام.

ومن ناحية ثانية، يجوز تأويل معاني آيات الثلاث المذكورة، وبقية الآيات الكثيرة التي يقترب فيها الإيمان بالعمل الصالح، أن ذلك الإيمان التوحيدي يفقد مصداقيته إذا لم يفعل صاحبه أعمالًا/سلوكيات صالحة. ويعني ذلك أن تلك الآيات القرآنية تنادي بانسجام النظري (الإيمان التوحيدي) مع الجانب الميداني (السلوك الفعلي للمؤمنين)، والتمثل في العمل الصالح في الحياة. ينطبق هذا أيضًا على مفهوم العمل باعتباره عملاً ماديًا أو فكريًا يقوم به الإنسان. تطالب أخلاقيات الإسلام أن يكون مثل ذلك العمل المادي أو الفكري صالحًا، يخدم البشرية ولا يضرها. فعلى سبيل المثال، إن العمل من أجل صناعة السلاح النووي في العصر الحديث عمل بعيد عن خدمة صالح الإنسانية. ومن ثم، فهو عمل غير صالح في أخلاقيات رؤية القرآن، ومنه الإسلام بصفة عامة. وهكذا، فالعمل الصالح في شكله المادي والسلوكي يمثل أولوية كبرى في أخلاقيات الإسلام. والدليل على ذلك هو افتراضه بالإيمان التوحيدي، القاعدة الأولى الصلبة التي يُبنى عليها العمران الإسلامي.

فلسفة فكرة العمل في القرآن

اعتمادًا على ما سبق بيانه، يمكن إبراز بعض المعالم الخاصة المميّزة للرؤية القرآنية للعمل. فأيات الذكر الحكيم لا يقتصر حديثها على المعنى الضيق للعمل، ذلك النشاط الجسدي، أو الفكري، الذي يقوم به الإنسان. بل هي تفسح المجال واسعًا ورحبًا لمعنى العمل، ليشمل السلوك البشري بكل أنواعه ومستوياته. وما العمل الفكري والجسدي واليدوي إلا جزء صغير ومحدود من السلوك البشري الكبير والواسع. ويتمثل أهم معالم خصائص العمل في الرؤية الإسلامية في اقتراح العمل في القرآن بالإيمان. وكما وقع ذكره، لقد ورد لفظ العمل مقرونًا بالإيمان في أكثر من سبعين من آيات القرآن الكريم. تحدّث العديد من علماء الإسلام عن الحكمة من ذلك. فأوضح الإمام أبو حامد محمد الغزالي رأيه في هذا الاقتراح، في كتابه إحياء علوم الدين، أن العمل لا ينوب عن الإيمان، ولا يقوم بديلًا له، ولا يندمج فيه. أي إنه "مزيدٌ عليه"، وقائم بذاته بجانب الإيمان، متميّز عنه: "العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتمّ دونه. والعمل وراء الإيمان، لا من نفس الإيمان. والعمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده، بل هو مزيد عليه، يزيد به"^{١٥}. كما تحدّث العلماء عن معنى "الصالح" بالنسبة لنداء آيات القرآن بالعمل الصالح. يرى الشيخ يوسف القرضاوي أن العمل الصالح يتمثل في كل صناعة، أو حرفة، أو تسد حاجة في المجتمع، أو تجلب له نفعًا حقيقيًا. كما أن إتقان العمل شرط ضروري ليكون ذلك العمل صالحًا في الرؤية الإسلامية. يرى الفيلاي أن أبلغ ما قيل في العمل الصالح هو ما جاء على لسان القرضاوي: "فليس الفرد الصالح في الإسلام هو الذي يعتزل الحياة في صومعة يعمر الآخرة بخراب الدنيا، ولكنّه الذي يعمل للحياتين، ويجمع بين الحسنيين". يعزّز القرضاوي رأيه هذا بأية قرآنية مشهورة بندائها للمسلم للعمل الصالح الآخرة والدنيا معًا: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"^{١٦}

[سورة القصص: الآية ٧٧].

الرؤية الغربية. فمفاهيم العمل عندنا كعرب ومسلمين لا تزال تشوبها الثنائية والازدواجية الواردة من الثقافة الغربية. يعتقد الفيلاي أن معالم الفكر الإسلامي حول أخلاقيات العمل هو المخرج وطريق النجاة لنا كأفراد ومجتمعات من الفقر والتخلف: "ويدلنا الفكر الإسلامي، وتؤكد تجاربنا في ربوع الوطن الإسلامي، على امتداد القرن الحالي، أن الإنسان وحده وسيلة النجاح، وليست وفرة الأموال ولا المخزون في أوطاننا من موارد الطبيعة ومن احتياطي الطاقة"^{١٨١}.

ويخلص الفيلاي إلى إبراز حسنات الفكر الإسلامي بما له علاقة بالعمل وقضاياها: "فقد اختص هذا الفكر بأنه فتح للتدبر في مفهوم العمل حقلاً معرفياً حافلاً بإثارة القضايا الأساسية، وسنّ الضوابط الحاكمة في سعي الإنسان بين الوجود والاستحقاق، وبين الإكراه والحريّة، وبين العبادة والمنافع الدنيوية، وبين الخفاء والعلن. ولا نعلم أن مراجعةً أخرى، سابقة أو لاحقة، دينية أو وضعيّة، جاءت بما جاء به الفكر الإسلامي، من مثل هذا التأصيل لمفاهيم العمل، ومن فتح أبواب الاجتهاد بين العلماء والجدال بين فقهاء الكلام"^{١٨٢}.

يقارن الفيلاي بين ما يسميه الرؤية التآلفية لمفهوم العمل في الفكر الإسلامي، وبين النظرة التبعية للعمل المألوفة في أدبيات العلوم الاجتماعية المعاصرة. فيرى توجّهاً صاعداً نحو إدخال مزيد من القيم الإنسانية على النظرة الاقتصادية للعمل من أجل فسخ المجال رحباً للقيم الأخلاقية، لصالح العامل وبيئة عمله: "حتى في أدبيات المدرسة الليبرالية المتمسكة بقانون السوق وسيادة منطق الربح، قد تحوّل الفكر الاقتصادي عن اعتبار العمل سلعةً متداولةً في أسواق العرض والطلب، تُقدّر قيمتها بحسب مقاييس الجدوى الماليّة فحسب، كما ألق نهائياً عن اعتبار العامل نفسه بضاعةً معروضةً للبيع في أسواق النخاسين"^{١٨٣}.

العمل في الرؤية الإسلامية والغربية

يدافع الفيلاي بقوة عن أخلاقيات العمل في المنظور الإسلامي، فهو يرى أن نظرتنا للعمل تهيمن عليها

مراجع

١ عالم اجتماع، جامعة تونس.

٢ أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٦)، الصفحتان ٤٤٧ و٤٤٨.

٣

J.F. Dortier, ٢٠١٤, 'Travail, le temps du changement', Les Grands Dossiers, NO ٣٦, Sciences Humaines, p. ١٣-٦.

٤ معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مصدر سابق، الصفحة ١٣٩.

٥, Dortier ٢٠١٤.

٦ عبد الرحمن بن خلدون، مقدّمة ابن خلدون (بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٩٩٣)، الصفحة ٢٩.

٧ المصدر نفسه، الصفحة ٣٠٠.

٨ المصدر نفسه، الصفحتان ٣٠٠ و٣٠١.

٩ المصدر نفسه، الصفحة ٣٠١.

١٠ المصدر نفسه، الصفحتان ٣٠١ و٣٠٢.

١١ المصدر نفسه، الصفحة ٣٠٢.

١٢ المصدر نفسه، الصفحة ٣٠٣.

١٣ المصدر نفسه، الصفحة ٣٠٤.

١٤ المصدر نفسه، الصفحة ٣٠٦.

١٥ مصطفى الفيلاي، مجتمع العمل (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ٢٠٠٢)، الصفحة ٣٩٧.

١٦ المصدر نفسه، الصفحة ٣٩٨.

١٧ المصدر نفسه، الصفحة ٣٩٩.

١٨ المصدر نفسه، الصفحة ٤٠٠.

١٩ المصدر نفسه، الصفحة ٤٠١.



الأخلاق في العمل الصحافي' فوزي غبارة'

منها أزمات إعلامية. فهي تشكك في أخلاقية العمل الصحافي أكثر ممّا تشكك في تحقّق قيم مثل الحرّية والمهنية في الصحافة. ولعلّ أفضل من يفكك عناصر هذه الأزمة الأخلاقية في المجال الإعلامي، على شموليته، والمجال الصحافي، على خصوصيته، هو عالم الاجتماع الفرنسي الراحل بيار بورديو Pierre Bourdieu. ففي كتابه المُعنون حول التلفزيون: تأثير الصحافة: Sur la Télévision: L'emprise du journalisme، الذي صدر في باريس، سنة ١٩٩٦ (رأى بورديو أنّ التلفزيون تحوّل من أداة لتسجيل الأحداث إلى أداة لخلق الواقع، وذلك من خلال زيادة نسبة مشاهدة البرامج ونشرات الأخبار لزيادة مداخيل الإعلانات، حتّى أصبح الأمر بمثابة "هوس إعلامي" لدى القنوات التلفزيونية، والنتيجة الحتمية لذلك هي أن المنطق التجاري فرض نفسه على الوظيفة الثقافية للتلفزيون وساهم في تحريف أثره الأخلاقي عامّةً.

لا يمكن نسيان تاريخ ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٥ لدى كثير من المسلمين: إنّه التاريخ الذي نشرت فيه صحيفة "جبلاند-بوستن Jyllands-Posten" الدانماركية المحافظة، والقريبة من أوساط رئيس الوزراء اليميني الحاكم آنذاك، أندرز فوغ راسموسن Anders Fogh Rasmussen، رسوماً كاريكاتوريةً مسيئةً للرسول الكريم، صلى الله عليه وسلّم، باسم حرّية التعبير، واحترام التجربة الديمقراطية للدانمارك. لم تكن هذه الأزمة هي الأخيرة، وذلك بالرغم ممّا أثارته من ردود أفعال جاءت في بعض الأحيان عنيفةً جدًّا، فقد نشرت مجلّة "شارلي إيبدو Charlie Hebdo" الفرنسية الساخرة أيضًا رسماً مسيئاً للرسول الكريم على صفحتها الأولى لتسخر من عمليات "النحر" التي تنفّذها الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) ضدّ خصومها. تُعتبر هذه الأزمات في واقع الأمر أزمات أخلاقية، أكثر

الخبر، والتحقّق من دقّته، والحذر عند نشره)، والعدالة (توخّي الحكمة في عرض الأخبار والصور، والابتعاد عن أساليب المبالغة والتهويل والإثارة).

ورغم أنّ كثيرًا من الكتاب يتوسعون في تحديد مفهوم الأخلاق في العمل الصحافيّ وفي تفريع مرجعيّاته والمبادئ التي يقوم عليها، فإنّ المحاولة الأكثر اكتمالاً في هذا الباب هي، حسب رأينا، تلك التي وضعها الأكاديميّ العراقيّ الكرديّ، رشورت آيدر، من معهد الأخلاقيّات العالميّة، والتي وردت تحت عنوان "المعايير الأخلاقيّة للعمل الصحافيّ"^٢، حيث حدد ١٠ معايير عامّة هي احترام الحقيقة وحقّ الجمهور في معرفة الحقيقة والالتزام بالموضوعيّة وعدم الخلط بين الرأى والخبر وعدم اللجوء إلى طرق ملتوية في الحصول على المعلومات والتعامل المهنيّ مع مصادر المعلومات وعدم الخلط بين النشاط السياسيّ والعمل الصحافيّ وتصحيح الأخطاء وعدم استخدام المهنة كسلاح وعدم استغلال المهنة للحصول على مكاسب شخصيّة وعدم الخلط بين المادّة الإعلانيّة والمادّة التحريريّة واحترام الأشخاص وخصوصيّاتهم.

ومن خلال هذه التحديدات الدقيقة للمعايير الأخلاقيّة في العمل الصحافيّ، يمكننا أن نستنتج الدلالات التالية:

١. المعايير الأخلاقيّة هي في جانب كبير منها ذات مرجعيّات دينيّة (الصدق؛ النزاهة؛ الاحترام؛ الالتزام؛ العدالة). وهي تتّسم بالصفة الاختياريّة للصحافيّ وفق قناعاته الذاتيّة. كما أنّها في جانب آخر منها ذات مرجعيّة قانونيّة (المسؤوليّة؛ تصحيح الأخطاء؛ عدم استغلال المهنة؛ التعامل المهنيّ). وهي تتّصف بالإلزاميّة، وتستوجب تنفيذ العقوبات القانونيّة المحدّدة في حقّ الصحافيّ في حال المخالفة.

٢. تختلف المسؤوليّة القانونيّة، في العمل الصحافيّ، عن المسؤوليّة الأخلاقيّة باختلاف أبعادهما. فالمسؤوليّة القانونيّة تحدّد بشريعات، أو قوانين، أما المسؤوليّة الأخلاقيّة فهي أوسع وأشمل لأنّها تتعلّق بعلاقة الإنسان بخالقه وبنفسه وبغيره، فهي مسؤوليّة ذاتيّة أمام ربّه وضميره. وهنا، فإنّ الرقابة تكون ذاتيّة، والرادع أيضًا ذاتيّ.

٣. إنّ أخلاقيّات المهنة الصحافيّة هي فئة فرعيّة من منظومة الأخلاق بصفة عامّة. والمُمارس مهنة

الاستتباع المنطقيّ لهذا الخلط الوظيفيّ-الأخلاقيّ هو أنّ التلفزيون، مثلاً، أصبح من الوسائل الأكثر فاعليّةً في التحكّم بالمجتمعات الحديثة وضبطها، وأداةً من أدوات "العنف الرمزيّ" الذي تستغلّه الطبقات الاجتماعيّة السائدة والمهيمنة لخدمة مصالحها ومكتسباتها خارج معايير الأخلاق ذاتها.

من هذا المدخل الخاصّ، يمكننا أن نطرح السؤوال الأوسع في هذا المقال: هل هناك أخلاق في الصحافة؟

هل هناك أخلاق في الصحافة؟

عرّفت الأخلاق بأنّها قيم، أو منظومة قيم، تعرّف عليها الإنسان باعتبارها جالبّة للخير وطاردةً للشرّ، وتحاول الفلسفة الليبراليّة أن تعطيها معنًى نسبيّاً يخضع للواقع، ولفهم الناس، ولطبيعة البيئة الاجتماعيّة، لتؤكّد بذلك أنّها ليست من المطلقات. ولهذا قيل عن الأخلاق إنّها شكل من أشكال الوعي الإنساني، أو مجموعة من القيم والمبادئ التي تحرك الأشخاص والشعوب، مثل العدل والحرّيّة والمساواة، بحيث ترتقي إلى درجة تصبح معها مرجعيّة ثقافيّة لتلك الشعوب لتكون سندياً قانونيّاً تستقي منه تلك الدول الأنظمة والقوانين الخاصّة بها.

تتمظهر إشكاليّة الأخلاق في الصحافة في مستويين متكاملين: يتصل المستوى الأول في ضرورة تحديد مفهوم هذه الأخلاق أوّلًا، ومرجعياتها ثانيًا (دينيّة، أم عرفيّة، أم قانونيّة وضعيّة)، ومبادئها ثالثًا (ملزمة أم غير ملزمة)؛ ويرتبط المستوى الثاني بالحاجة إلى ترجمة هذه الأخلاق إلى قوانين وتنظيمات تحدّد مسؤوليّة كلّ طرف مشارك في العمل الصحافيّ.

ووفق المعنى السابق، فإنّ الكاتب والأكاديميّ العراقيّ، الدكتور صابر بابان، يرى، مثلاً، في مقال له نشره على موقعه الشخصيّ، تحت عنوان "أخلاقيّات المهنة الإعلاميّة"، أنّ أخلاقيّات المهنة الصحافيّة تتلخّص في خمسة أسس هي: الصدق (الحقيقة هي المحور المحرّك للإعلاميّ)، واحترام الكرامة الإنسانيّة (نشر الأخبار لا يجب أن يمسّ الكرامة الفرديّة والجماعيّة للناس والثقافة والدين)، والنزاهة (تقديم الخبر والصور بنوع من الحياد، وتجنّب الخلط بين الخبر والتعليق والإعلان)، والمسؤوليّة (الحرص على صحّة

للعاملين فيها، كما هو حال ميثاق الشرف المهني، ودليل السلوك المهني لقناة الجزيرة.

وما يجمع هذه المواثيق جميعًا هو أنها "ناבעة من الإعلاميين أنفسهم بدون ضغوط من الحكومة، وليس لها قوة قانونية، وإنما أخلاقية"¹.

وبهذا المعنى، فإنه يمكن تعريف أخلاق أو آداب المهنة (Professional Ethics) في الصحافة بأنها مجموعة من القواعد والآداب السلوكية والأخلاقية التي يجب أن تصاحب الصحافي المحترف في مهنته تجاه عمله، وتجاه المجتمع ككل، وتجاه نفسه وذاته أيضًا.

ولتجسيد هذه المعايير الجامعة، تم الإعلان عن "مبادئ الأتحاد الدولي الخاصة بممارسة مهنة الصحافة"، وهي تسعة مبادئ يمكن تلخيصها في ثلاثة مبادئ أساسية هي: الحقيقة، والحرية، والنزاهة. وكل ما سوى ذلك تفصيل منها، وتفريع عنها، لا يغير شيئًا من شموليتها. كما تم إنشاء "مركز أخلاقيات وسائل الإعلام الدولية (CIME)" لتدريب الصحافيين المحترفين في كل دول العالم على الأخلاقيات الصحافية، وتنظيم النقاش بين صحافيين العالم حول هذه الأخلاقيات.

بل إن هناك خدمة دولية مجانية لمساعدة الصحافيين المحترفين في العالم، من الذين يجدون صعوبة في تقدير المواقف الأخلاقية أثناء تغطيتهم للأخبار، وذلك ليتخذوا القرارات الأخلاقية المناسبة لهم، والبرنامج مدعوم من قبل "نادي شيكاغو هيدلاين Chicago Headline Club"، و"مؤسسة هاورد وأرسولا دابن Howard and Ursula Dubin Foundation" الأمريكيات.

وخلاصة القول، إن مجال الصحافة والإعلام تعرض خلال العقود القليلة الماضية لإكراهين اثنين: واحد مرتبط بما يمكن تسميته باقتصاد السوق، وقد تسبب في خلق "ثقافة سوق" أدت إلى زعزعة الثوابت الأخلاقية للعمل الصحافي؛ وثان تمثل في الطفرة التكنولوجية التي تسببت في "دمقرطة" الإعلام، ونشأة الصحافة الاجتماعية التي أسست بدورها سلمًا جديدًا للأخلاق الصحافية.

عن أي أخلاق صحافية نتحدث؟

يمكن تلخيص قضية الأخلاق في الصحافة في خمس

الصحافة يواجه أنواعًا خاصةً من المشكلات ذات طبيعة أخلاقية. لذلك، يتعين عليه أن يتعلم كيف يتعامل معها بشكل منهجي ليتخذ القرارات المناسبة له. وهنا يمكن القول إن القاعدة الجوهرية لأخلاقيات المهنة، والمتمثلة في فصل الخبر عن التعليق مثلًا، لا تخص القانون، أو التشريع، بل تدخل ضمن مجال أخلاقيات المهنة تحديدًا.

٤. الخلاصة الأهم، وفق هذا الفهم، هي أن الممارسة الإعلامية يجب أن توضع في سياق تقاطع أربعة حقول أساسية هي:

أ. حقل القانون: باعتباره نصوصًا تشريعية، ولوائح تنظيمية، مُدونةً وسارية المفعول نصًا صريحًا لا يقبل التأويل.

ب. حقل الأخلاق: ويُراد به مجموع القيم والنواميس والأعراف التي تتوافق الجماعة بشأنها، ويتقاطع في صلبها الاجتماعي بالثقافي وبالرمزي، وهي غير مُدونة في الغالب.

ج. حقل الأخلاقيات: هي مجموع القيم التي تُستنبط مرجعيتها من حقل القانون، ومن حقل الأخلاق، لكنها لا تخضع للتدوين بحكم طابعها التوجيهي.

د. حقل أخلاقيات المهنة: مجموع المعايير التي غالبًا ما يسنها الفاعلون فيما بينهم، دوما تدخل كبير من القانون. هي مزيج من القانون ومن الأخلاق ومن الأخلاقيات. وهي أيضًا طريقة يعتمدها الفاعلون لتحديد قواعد اللعبة فيما بينهم. ويُعد ميثاق الشرف المهني جزءًا منها.

بعد التمعّن في الاستنتاجات السابقة، يمكن القول إن "المبادئ الأخلاقية (في العمل الصحافي) لا بد أن تكون نابعةً من الإعلاميين أنفسهم، حتى يستطيعوا الالتزام بها، لأنها أولًا وأخيرًا تعبر عن ضمائرهم المهنية. ولذلك، فهم الأقدر على تصوّر مشكلاتهم ومواجهتها"^٥.

وفي العمل الصحافي يمكن الحديث عن عدّة مواثيق شرف، أو أدلة للسلوك المهني؛ منها دولية، مثل ميثاق شرف الفيدرالية الدولية للصحافيين؛ ومنها إقليمية، مثل ميثاق شرف الصحافيين العرب؛ ومنها وطنية، مثل ميثاق شرف الصحافيين الأردنيين، أو المغربية، أو المصريين، أو غيرهم؛ ومنها داخلية، مثل المواثيق التي تضعها المؤسسة الإعلامية

دوائر متداخلة: الدائرة الأولى هي الأصغر، وتمثل المعايير الأخلاقية للأفراد الذين يحدّون لنا ماذا نقرأ ونسمع ونرى. إنهم حراس البوابة، وأمناء الهيكل، وأعوان الرقابة الذاتية والموضوعية. الدائرة الثانية تمثل المواثيق الأخلاقية الخاصة بكل وسيلة إعلامية. الدائرة الثالثة تمثل المعايير المهنية والأخلاقية التي تضعها الهيئات الصحافية، مثل نقابات، أو جمعيات الصحافيين. الدائرة الرابعة تمثل الفلسفات الإعلامية الأساسية لكل دولة، وقوانينها الخاصة بالإعلام. والدائرة الخامسة تشمل المعايير والحدود الأخلاقية التي يسمح بها الناس، أو يرفضون تخطيها.

لكن الثورة الإلكترونية في مجال الإعلام "امتدت لتشمل أخلاقيات العمل الصحافي، ومراجعة مفاهيم ظلت لسنوات مقدّسة في مواثيق الشرف المهني التي ظهرت على الصعيد الدولي منذ عام ١٩١٣، ولنذكر على سبيل المثال لخصوصية، أو ما يعرف بالخطوط الحمراء السياسية، أو الشعاع المقدّس، كما هو شائع في المغرب مثلاً. وفي هذا الصدد، فإن مجموعة من العناوين الإلكترونية المعروفة، والأكثر زيارةً في المغرب، تتجاوز الخطوط الحمراء، وتمسّ ببعض المقدّسات".

لقد انتقلنا مع صحافة مواقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك، تويتر، يوتيوب، منتديات، مواقع الدردشة وغيرها كثير) ومع الصحافة الإلكترونية (المواقع الإلكترونية، الصحف التفاعلية، المدونات الشخصية وغيرها كثير) من صحافة تقليدية خاضعة لمعايير أخلاقية واضحة، وفق ما تمّ تحليل عناصره الكبرى سابقاً في هذا المقال، إلى صحافة جديدة "رقمية"، غير تقليدية، لا تعترف بالمعايير أصلاً، ولا تلتزم بها، ولا تحترمها، ولا تلقي لها بالاً.

بهذا المعنى، فإن الصحافة الاجتماعية عموماً، والمدونات خصوصاً، تحوّلت إلى "سلطة خامسة" تراقب أداء "السلطة الرابعة"، ممثلةً في الإعلام التقليدي الرسمي والخاص، ممّا يُمكن معه القول إنّ هذه "الصحافة الجديدة صحافة تفاعلية، وفضاء مفتوح للآراء الحرة العابرة للحدود، والمساهمون في هذا الفضاء الواسع أكثر عدداً من الصحافيين المحترفين على مستوى العالم أضعافاً مضاعفة، والناشطون منهم يشخّصون مشاكل مجتمعاتهم ويراقبون أداء

هنا مكنم الإشكال: إنَّ الأخلاق في الإعلام التقليدي كانت منضبطةً بسياقات دينية واجتماعية وثقافية واقتصادية واضحة، وتتحكم في كل دولة باختلاف ظروفها، لكن الآن أصبحت الأخلاق أكثر نسبيةً من ذي قبل، لأنها لم تعد تلتزم بالإكراهات الدينية والثقافية والاجتماعية العامة، بل بالتقدير الفردي للشخص الذي ينشئ الخبر، أو يكتب الرأي الذي يراه بنفسه، لا بعيون مجتمعه. كما أصبحت الأخلاق، في المجال الإعلامي، أخلاقاً معلومةً لا تخضع للشروط الخاصة بكل دولة. فحرية الرأي الديني والموقف السياسي أمست حقاً مكتسباً لكل الناس، ولا مجال لمنعه، أو تحجيمه، إلا بتأنيب الضمير، ومن هنا عدنا إلى البداية: الأصل الظاهر هو الذاتية والفرديّة، لكنّ السبب الكامن وراء ذلك هو الدين، تصديقاً لقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن وابصة بن معبد رضي الله عنه، أنّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له: "جئتُ تسألني عن الرِّبِّ والإِثمِّ، فقلَّ نَعَم، فجمَع أنامله، فجَعَلَ يَنكُتُ بهنَّ في صَدْرِي وَيَقُولُ، يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبِكَ، وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: الرِّبُّ مَا أَطْمَأَنَّنْتُ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوَكَ".

وفي هذا الوضع المضطرب، أصبحت المعايير الأخلاقية، في العمل الصحافي، خاضعةً للشخصانية، وتميَّزةً بالنسبية، ومتَّصفة بصفة المؤقت حتى يثبت العكس. ومن هنا، يمكننا أن نفهم سرَّ قوَّة الحملات الإعلامية المنسقة التي تقودها الصحافة الجديدة على الإعلام التقليدي ورموزه، بل على كلِّ السلطات التقليدية، بما فيها السلطة السياسية (ثورات الربيع العربيّ أبرز أمودج لذلك). فهذه الصحافة الجديدة "المتمرّدة" على كلِّ أخلاقيات المهنة الصحافية قادت ثورات اجتماعية وسياسيةً فارقةً في التاريخ المعاصر. فبين سنتي ٢٠٠٩ و٢٠١٠ ساهم موقع "تويتر" في تحشيد المتظاهرين ضدّ إعادة انتخاب الرئيس الإيراني السابق أحمددي نجاد، فوَقعت ما سُميت آنذاك بالثورة الخضراء لأوّل مرّة بعد الثورة الإسلامية التي أطاحت بحكم الشاه سنة ١٩٧٩. وبين سنتي ٢٠١٠ و٢٠١١، قاد موقع "فيسبوك" و"المدونات" ثورةً ربيعيةً ضدّ حُكمي الرئيس التونسي والرئيس المصري، ممّا أدى إلى خلعهما من السلطة. وكما يُقال بأنَّ "أولى الضحايا في الحرب هي الحقيقة"، فإنَّ أولى ضحايا الإعلام الجديد هي المعايير الأخلاقية التقليدية، لكنّ الواقع يقول أيضًا إنَّ هذا الإعلام الجديد تجاوز كلَّ السقوف المتدنية التي وضعها الإعلام التقليدي، وصنع سقوفًا أعلى بكثير ممّا كان مسموحًا به. وهي سقوف لا تحدّها إلا السماء. وربّما

مراجع

- ١ كاتب صحافي وباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- ٢ ترجمه درويش الحلوجي، تحت عنوان التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول (سوريا: دار كنعان، ٢٠٠٤).
- ٣ موقع شفق نيوز، كردستان العراق، ٢٥ أبريل ٢٠١٣.
- ٤ الدكتور يحيى اليحيوي، جامعة محمد الخامس، المغرب: "الأخلاق في مجتمع الإعلامي"، موقع مركز الجزيرة للدراسات. ٩ سبتمبر، ٢٠١٤.
- ٥ الدكتور شريف اللبان؛ كلية الإعلام بجامعة القاهرة، "البحث عن الأخلاقيات في زمن الانفلات: قراءة موضوعية في مشروع الشرف الإعلامي"، موقع المركز العربي للبحوث والدراسات. ٠٧ أبريل، ٢٠١٤.
- ٦ يحيى شقير، دورة تدريبية حول التغطية النزيهة للانتخابات بعنوان: "المسؤوليات الأخلاقية للصحافة خاصّة وقت الانتخابات"، موقع اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان. قطر، دون تاريخ.
- ٧ محمد كريم بوخصاص، "الصحافة الإلكترونية بين الممارسة والالتزام بأخلاقية المهنة"، صحيفة العلم المغربية، عدد ١٤ يوليو، ٢٠٠٩.
- ٨ جودت هوشيار، "الإعلام مهنة وأخلاق يمارسها الإعلامي"، حاوره د. خالد ممدوح العزّي، موقع زمان الوصل، ٢٣ فبراير، ٢٠١٤.
- ٩ محمد كريم بوخصاص، "الصحافة الإلكترونية"، مصدر سابق.
- ١٠ رشا علم، "الصحافة الأخلاقية"، صحيفة المصريّ اليوم، عدد ١٤ أبريل، ٢٠١٤.

سير الكتاب المساهمين

باتريك لود أستاذ في جامعة جورجتاون منذ عام ١٩٩١. مهتم في المقارنة الروحانية، والشعر والتفسيرات الغربية للإسلام والتقاليد الآسيوية والحكمة التأملية. وقد ألف أكثر من عشر كتباً من بينه: مسارات الإسلام الداخلية (SUNY ٢٠١٠)، صلات بدون توقف (World Wisdom ٢٠٠٥)، العبة الإلهية، الضحك المقدس، والتفاهم الروحي (Palgrave ٢٠٠٥).

laudep@georgetown.edu

القس جون أولورونفيمي أوناييكن، يشغل حالياً منصب رئيس الأساقفة في أبوجا، نيجيريا؛ كما عين أكثر من مرة عضواً في الأمانة العامة لمجلس الأساقفة في الفاتيكان، ورتقي لمنصب الكاردينال في ٢٠١٢. وله مساهمات عدة في الحوار و التقارب بين الأديان، وعلى وجه الخصوص بين المسيحية والإسلام.

onaiyekan7@yahoo.com

الأستاذ علي محي الدين علي القرداغي ولد في ١٩٤٩ في مدينة السليمانية في كردستان العراق، أستاذ الشريعة والفقه المقارن، وهو كذلك متخصص بالمصارف الإسلامية، والتي صدر له فيها كتباً تعد مرجعاً. ويشغل حالياً منصب الأمين العام للإتحاد الإسلامي لعلماء المسلمين. وهو عضوفي مؤسسات إسلامية متخصصة عديدة، إقليمية و دولية. ودكتور القرداغي هو خبير ومستشار لأكثر من ٢٠ من عشرين مؤسسة علمية متخصصة عبرالعالم. حاز د.علي القرداغي بجوائزعدة منها: - جائزة الدولة التشجيعية في الفقه المقارن، وجائزة عجمان، وجائزة وقاية من مؤسسة تكافل للتأمين لأفضل بحث. صدر له ٣٠ كتاباً وأكثر من مائة مقالة علمية.

draliq@hotmail.com

سري سوامنتان ولد في ١٨٩٤، وعندما بلغ من العمر ١٣ سنة رحل إلى منطقة كافلاي حيث التحق بفرقة رهبنة هندوسية وتدرج فيها حتى نصب لدرجة "المعلم الأكبر" الثمانية والستون، حسب تقاليد الديانة الهندوسية. وقام برحلات في طول البلاد وعرضها، سيرا على الأقدام. كما أرسى دعائم الأوقاف بهدف إنشاء مؤسسات ومشاريع خيرية. وكان شغله الشاغل هو الحفاظ على الفيدا والتقاليد والدرما.

علي بن مبارك باحث جامعي تونسي مختص في الحضارات والأديان وخبير في حوار الأديان، وهو عضو فريق البحث "حواراتالثقافات" بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. كما له عضوية في عدة جمعيات ومنظمات وطنية ودولية، شار كفي عدة ندوا وتدولية داخل تونس وخارجها. وألف عدة مقالات وكتب بالعربية والفرنسية في حوارالأديان والدراسات المقارنة في مجال الفكر الديني، كما يساهم في إدارة تحرير في المجلة اللبنانية الصادرة باللغة الفرنسية: "Débat le" ومجلة "دراسات أندلسية" التونسية.

benmbarek.ali@yahoo.fr

محمود الذوادي درس في بلاد عديدة عبر العالم منها كندا والجزائر والسعودية وتونس وماليزيا وسلطنة عمان. ألف ٢٤ كتاباً باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية أو بالاشتراك مع آخرين. ترجم كتابين منا لفرنسية والإنجليزية إلسعربية. نشر باللغات الثلاثة أكثر من ٢٠٠ دراسة وبحثاً ومقالات ومراجعات كتب. تتمحور كتبه حول ستة مواضيع رئيسية: المجتمع التونسي، الفكر العربي الإسلامي، الفكرالخلدوني، عالم الرموز الثقافية، "التخلف الآخر"، الجريمة والانحراف. إجتهد د.محمود الذوادي فابتكر نظرية الرموز الثقافية (الإنسان كائن ثقافي بالطبع) ومجموعة من المفاهيم لدراسة بعض الظواهر من واقع المجتمعات العربية، مثل: "التخلف الآخر" و"الإزدواجية اللغوية الأمانة".

m.thawad@yahoo.ca

فوزي غبارة هو باحث جامعي بصدد الإعداد لرسالة دكتوراه بجامعة السوربون الفرنسية تحت عنوان "الإسلام الأوروبي". وهو صحافي مقيم في قطر.

gghabarafouzi@hotmail.com